ألف ليلة وليلة

بقلم

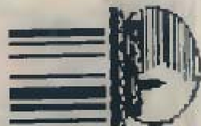
حسن جوهر
محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

١







ألف ليلة وليلة

الجزء الأول

شهر زاد ودنيا زاد



كتبه

حسين جوهر ـ محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية





دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الأول

تمهيد

فطِنَ الغربيُّون إلَى ما للقصَّة منْ أثر فَنىٍّ، فَهى تُغذى العقْل، وتنمِّى الملكَات، وتُخصبُ الذِّهنَ، وتُوسِّعُ الخيالَ، وتُرهفُ الحِسَّ.

لذَلكَ توفَّروا عَلى كِتابتها، وجَعلُوها أحَدَ قِسْمَى النَّثر الفنِّى عِندهمْ، وزادَ تَخصُّصهُم فِيها: فَكانَ بعْضُهم يكتُبُ القصَّةَ القَصِيرةَ ولا يتَجاوَزُها، وبعْضُهم يكتُبُ الرِّوايةَ الطَّويلةَ ويقْصِرُ جُهدَه عَليهَا.

والشَّرقيُّون عَرفوا القِصَّةَ قديمًا، كمَا عرفهَا الغَربيُّون، إلاَّ أن منحاهُم فى تَأليفِها يخْتلفُ عَنْ مَنْحى الغَربيِّين. ولَعلَّ الَّذى سبَّبَ هٰذا الاخْتلافَ التَّفاوتُ بَين العقليَّاتِ، واخْتلافُ البِيئاتِ والمدَاركِ، والحَياةِ الاجْتماعيَّةِ والسِّياسيَّة.

ولَعلَّ أوَّلَ ما عَرفهُ الشَّرقيونَ هُو القَصَص الدِّينىّ الذِى جَاء فى الكُتبِ السَّماويَّة، فأخَذوهُ مِنها، وزَادُوا فِيه، واتَّخذُوه وَسيلةً للمُتْعةِ والتَّسليةِ، أوْ للعِظةِ والاعْتبارِ، أوْ للأمرينِ جَميعًا، فانْتشَرت القِصصُ الهِنْديةُ فى بِلادِ الهِنْدِ، والفَارسيةُ فى بِلادِ الفُرسِ، والمِصْريةُ فى مِصْر القَديمةِ؛ ثمَّ رحَلتْ قِصصُ الهِندِ إلَى فارسَ. وبَعْد أنْ توطَّدتْ أرْكانُ الإسْلامِ، واخْتَلطَ العَربُ بالفُرس وغَيرِهم، انْتقَلت القصَّةُ الهِنْديَّةُ والفارسِيةُ والمصْريةُ والصِّينيةُ وغَيرُها إلَى العرَبِ، وعَرفوا منْ ذَلكَ كلِّه شَيئًا كَثيرًا، وكانُوا يبْتدعُون أحْيانًا علَى مِثالهِ.

وتَبوَّأتِ القِصةُ مَركزًا مُمتازًا عِنْد العَرب، فى عَهْد الدَّولةِ الأُمويَّة، وكانَ القَاصُّ يعيِّنهُ الخليفةُ كما يُعيِّن القَاضِى، وقَد يَجمعُ الرجُلُ مِنهمْ بَين القَصِّ والقَضاءِ.

أقبلَ العَامةُ عَلى السَّماعِ للقَاصِّ فى مخْتلِف البِلادِ الإسْلاميَّة، ولاسيَّما مِصْر، واهْتمَّ القُصَّاصُ باخْتِيار قصَصِهم، وإذَا لَم يُسعِفهمُ الاخْتيارُ وضعوا قصَصًا من عِنْدهم؛ وصَارَ الرّواةُ يَتَناقلُون هٰذه القِصَصَ رِوايةً أوْ تدْوينًا، وكانَ مِنْ أهمِّها تِلكَ القِصصُ الَّتى كانَتْ نواةَ الكِتاب الَّذى سَمّوهُ «ألْفَ ليلةٍ ولَيلةٍ». ثم أضِيفَ إلَيه قِصصٌ أصْلُهَا هِندىٌّ أو فارِسىّ قديمٌ.

اشْتَهر هَذا الكتابُ بيْنَ العامَّةِ فى العُصورِ الوُسْطى، فى مِصْر وغَيرِها من البِلادِ الإسْلاميَّة، وكانَتِ الدُّولُ التُّركيةُ والفَارسيةُ والهنْديةُ أكثرَ الدّولَ اخْتلاطًا بالدُّولَ الإسْلاميَّة، فوقَفَ بَعضُ أبْنائِها عَلى شَىءٍ مِنْ أخْبارِ هٰذا الكتابِ، فترْجمُوهُ إلَى لُغاتِهمُ الحَديثَة بَعدَ أنْ نُسىَ ما كانَ أصْلُه هِنديًّا أوْ فارسيًّا، وبذٰلكَ رجَع إلَيهمّ قَصصهُم عَنِ اللُّغةِ العَربيَّة، مُضافًا إليهِ قصَصُ الدُّول الأخْرَى؛ وبَدأ ذٰلكَ فى القرْنَ السَّابع عَشَر الميلادِىّ.

أمَّا الغربيُّونَ فَقد عَرفُوا هٰذا الكِتابَ فى القرْن الثَّامن عَشرَ، فتُرجِمَ إلَى الفرنسيَّةِ، وشَاعَ، وعُرفَ قَدرُه بينَ الخاصَّةِ والعامَّة، وأحبَّه النَّاسُ، وترجَموهُ بَعدَ ذٰلك إلَى جَميعِ اللُّغاتِ الأوربيَّة، وتَوفَّر أُدباؤُهم عَلى دِراستِهِ وتَحليلِهِ.

ثمَّ بَدأنا - نحْنُ الشَّرقيِّين - نَتنبَّه لِقيمةِ هٰذا الكِتابِ الفنيَّة، ومَنْزلتِه القصَصيَّةِ الرَّفيعةِ، فَتوفَّرْنا عَلى دِراستِه وتَحليلهِ كَما فَعلَ الغربيُّون منْ قَبل، نُيسِّره للنَّاشِئين تَيسرًا يَجعلُهم يُقبِلونَ عَلى قِراءتَه، ويَسْتفيدُونَ منهُ.

وهَا نَحْن أولاءِ نُشاركُ فى أنْ نُيسرَ لأبْنائِنا سَبيلَ الانْتفاعِ بهٰذا الكِتابِ، بما نَختارُ مِنْ قِصصٍ نَصُوغُها لَهم صِياغةً تُناسِبُ ثَقافَتهم ومَداركَهُم، غَيرَ مقيِّدينَ بتَرتيبِ لَياليه، ولاَ مُتعرِّضينَ لهَا، مَع المحافَظةِ عَلى جَوهرِ القِصَص ورُوحِها.

وما كانَ حَتمًا عَلينَا أنْ نُحافظَ عَلى أصْل الكِتابِ وتَرتيبهِ ولَياليهِ؛ لأنَّ نُسَخه المطْبوعَةَ والمخطُوطةَ تَخْتلفُ فى ذَلكَ كلِّه اخْتلافًا كَبيرًا.

فَتجدُ ما يسُوقهُ بعْضُها فى مائةِ لَيلةٍ مثلا يسُوقُهُ بعضُها فى عِشْرين ليلةً .

ويخْتلفُ ترتيبُ القِصَص اخْتلافًا كَبيرًا، فتَجدُ قصّةً فى الجُزءِ الأوّل مِنْ هٰذهِ النُّسخَة، وهى نَفْسها فى الجزْءِ الثّالثِ منْ نُسخةٍ غَيْرها.

وبَعْضُ الأُصُولِ أو الطّبعاتِ فِيها قِصصٌ وحكاياتٌ لَيستْ موجُودةً فى غَيرهَا من الأصُولِ والطّبعاتِ الأخْرَى؛ بَل إنَّ بعضَ الكُتب وضُعَ فيها حِكاياتٌ طَويلةٌ أو قَصيرةٌ عَلى نَسَق حِكايات ورَدَتْ فى الكِتابِ، ولا تَختلفُ عَنها إلاّ فى الأسماء أو الأماكِن أوْ نَحوها، ثمّ أضِيفتْ هٰذهِ الحِكاياتُ نفْسها إلَى الكِتابِ، مَع أنّها لَيستْ مِنهُ.

والقصّة الواحِدةُ تطُولُ فى كِتابٍ وتقْصُر فى كِتابٍ آخَر.

واللّيلةُ الواحِدةُ كذٰلكَ تطُولُ فى كِتابٍ وتقْصُر فى كتابٍ آخرَ، وقَدْ تقْصرُ إلَى حدٍّ يجعَلكَ تسْتطيعُ أنْ تقصّها فى دَقائق.

وأكْثرُ مِنْ هٰذا أنّ قصّةَ اللّيلةِ المائةِ مثلاً نجدُها فى هذا الكِتابِ غَيرَ قصّةِ اللّيلة المائةِ الّتى يرْويهَا كِتابٌ ثانٍ، وكلْتاهُما غيرُ القصّةِ الّتى يَرْوِيها كِتابٌ ثالثٌ.

وأسَاليبُ التّعبيرِ فى الخبَرِ الوَاحِد مخْتلفةٌ اخْتلافًا كَبيرًا.

كلُّ ذلكَ جَعَلنا فى حلٍّ منْ أنْ نُخرجَ الكِتابَ علَى التّرتيبِ الّذِى رَأيناهُ، وفى الأسْلُوب الّذى يَجعلُ القَارئَ يسْتمتعُ بهِ، وحَلّيناه بالصُّورِ الّتى يُعبّرُ فنُّها، وتَنطق بما نَطقَ بهِ أسْلُوبها، بَعْد أنْ خلّصْناهُ منَ السّفاهاتِ الّتى لَصقَت بهِ، ولا يَجوز أنْ نُقدّمها للْبرآءِ والمهذّبينَ؛ وسَمّيْناهُ «ألفُ ليلةٍ ولَيلةٍ»، وإنْ لَم نَعدّ لَياليه واحِدةً بعْدَ اخرى، عَلَى ما جَرتْ عليهِ الطّبعاتُ المختلِفةُ، فإنَّ هٰذا العدَّ بعْدَ الّذى قدّمناه لَيسَ إلا تَقليدًا أُريدَ بهِ الإسْرافُ فى الرّبطِ بينَ اسْمِ الكِتابِ ونظامِه، وإنْ خَالفَ هَذا النّظامُ الذّوْقَ والعقْلَ والواقعَ.

وإنَّ هٰذا الكِتابَ يَجبُ أنْ يكونَ مَوضعَ عِنايةِ المصْريين أكْثرَ مِنْ سِوَاهم؛

فإنّه حِينَ يقُصُّ عنِ الصِّينِ أو الهنْدِ أوْ فارِسَ مثلاً، ويُصوِّرُ أهْلَ هٰذهِ الأقْطارِ فى عَاداتِهم، وأخْلاقِهم، ومَعايشهم، ومآدِبِهم، وآدابِهِم؛ وفى أحَادِيثِهم، ومجَالسِهم؛ ويتَحدَّثُ عَنْ أعْراسِهم ومآتِمهِم؛ ويَصفُ مُعامَلاتِهم التِّجارِيةَ، والقَضائيَّة؛ ويذْكرُ مَلابِسهمْ وهَيئاتِهم، ويَعْرِض أعْمالَ المرأةِ ومَا يَجرى عَليها وَراءَ المقَاصِير، ودَاخلَ القُصُور والدُورِ، وما يَجْرى مِنها ممَّا يَدُلُّ عَلى تبرُّمهَا وسَأمِهَا -- حِينَ يقصُّ الكِتابُ هَذا وغَيْرَه إنما يُصوِّرُ مِصرَ والمصْريِّين.

وأكْثرُ مِنْ هٰذا أنهُ حِينما يَذْكرُ هارون الرَّشِيدَ، ودَارَ الخِلافة، ومَدينةَ بَغْدادَ مثلاً - فإنَّ ما يذْكُره لا يصَوِّرُ مدينةَ بغْدادَ، ولكنَّه يُصوِّر فى كَثيرٍ مِنَ الأحْيانِ حَياةَ القَاهِرة الَّتى انْتقلَتْ إلَيها الخِلافةُ الإسْلاميةُ بَعْد بَغْداد، وأصْبَحتْ مِنْ أهمِّ المدُنِ الإسْلاميَّة.

وإنَّ «دِى ساس» و «فُون همر» وهُما مِنْ أكْبَر الَّذينَ اشْتَغلوا بالمشْرقيَّات - مُتَّفقانِ عَلى أنَّ القِصَصَ الَّتى وَردَ فِيها ذِكرُ هارون الرَّشيدِ - هِيَ أولاً : مِنْ خَيرِ القِصَص الَّتى اشْتملَ عَليها الكِتابُ : حلاوةَ أسلُوبٍ، ودِقَّة تصْويرٍ؛ ومِنْ أتْقنِها حَبْكًا ورَبْطًا، وهىَ ثانيًا : مِصْريةُ الصِّفاتِ والوقَائعِ، قاهِريةُ اللُّغةِ؛ فلُغتُها هِى لُغةُ المَماليكِ فى دَواوِينهِم وأخْريات أيَّامهم.

والقِصَصُ مُخْتلفةُ الأصُولِ، مُختلفةُ الأقْطارِ والبيئاتِ، ولكنَّ ناسِجِيها نَسْجًا عَربيًّا مِصْريُّون أوَّلا!

وعَسَى أنْ نكونَ بذلكَ قَد قدَّمْنا شَيئًا مِنْ هَذا اللَّون الأدبيِّ فى طِرازٍ يُناسبُ عُقولَ النَّاشئينَ مِنْ أبْنائِنا وبَنَاتنا، يَجِدُون فِيه مَسْلاةً لهُم، يَقتلُون بهَا وقْتَ فَراغِهم، ويَجدونَ فِيه عِظةً وحِكمةً، يتَدبَّرونها ويَعُونها؛ ويَجدونَ فِيه ذُخْرًا أدَبيًّا يسْتعينُونهُ إذَا كَتبُوا، ويَسْتلْهمونه إذَا خَطبُوا.

وفَّقنا اللَّهُ، وحَقَّق ما نَرجُوه لَهمْ مِنْ خَيرٍ.



شهرزاد ودنيا زاد

مقدمة

زعموا أن المَلكَ شهريار كان أحدَ مُلُوكِ بني ساسان ، وأنَّ أخاه الأصغَرَ شاه زمان ، كان مَلِكا على سَمَرْقَنْد ؛ وكان كلٌّ من المَلِكَيْن حاكمًا عادِلًا ، محبوبًا من رَعيَّتِه ، لحُسنِ سيرته ، ولَطِيفِ عِشْرَتِهِ .

مضى زمنٌ طويلٌ لم يَلْتَقِ الأخوان ، فرغِبَ الملكُ شهريار أنْ يَرى أخاه شاه زمان ، فأرسَلَ إليه وَزيرَه ليُبلِّغَه رَغبتَه ، ويطلب منه الشُّخُوصَ إليه ؛ فذهبَ الوزيرُ إلى شاه زمان ، وأبلغَهُ رسالةَ أخيه الكَبِير ، فصادفَتْ من نفسِه هَوًى ، لأنه كانَ يُفكِّرُ فى ذلك من قبل .

جهَّزَ شاه زمان نفسَه لزيارةِ أخيه ، وحملَ معهُ من الهدايا الثمينةِ ،

والتُّحَفِ النادرَةِ ، والألطافِ الغَرِيبة غيرَ قليلٍ ، وأعدَّ خَيْلَه وبِغاله وجِماله ، وحملَ عليها كلّ ما أعدّه ، وسايرَه وزيرُ أخيه ، وحَفَّتْ به حاشيتُه ، وساروا جميعاً إلى شهريار .

لم يمض شاه زمان غيرَ بعيدٍ حتى ذكر أنَّه نسِى جوهرةً ثمينةً أعدَّها هديةً لأخيه ، وكانت لا يَعرف خبرَها ولا مكانَها أحدٌ غيره ، فلم يَجِدْ بُدًّا من أنْ يعُودَ هو نفسُه إلى قصرِه .

وما كادَ يدخلُ القَصْرَ حتى وجدَ زوجتَه تُنَادِمُ مُغنِّيًا ، وكان عَهده بها ألاَّ تُنَادِمَ مُغَنِّيًا ، وألاَّ تَبْرح مقصورةَ الحرِيم ، على ما كانَتْ عليه عادَتُهم فى زَمانهم .

فلما رَأى ذلك أظلمت الدُّنيا فى وَجهه ، وضاقَتْ على سَعَتِها ، وغلى دمُه فى رأسِه ، فخانَتْه أعصابُه ، واسْتَلَّ سيفَه من غِمدِه ، وقَتَلَ زوجتَه والمُغَنِّى .

رجعَ شاه زمان بعدَ ذلك إلى رُفقائِه ، وتابَعُوا سيرَهم ، حتى وَصلوا إلى أبوابِ مدينةِ أخِيه ؛ فلما طار الخبرُ إليه ، خرجَ هو ورجالُ حاشيتِه لاستِقْبالِهم فى ظاهرِ المدينةِ .

ولما التقى الأخوانِ تَعانَقا ، ثم سارا تحفُّ بهما رِجالُهما ، وقد لَبِست المدينةُ حلةً من الزينة .

استَقرَّ الأخَوان فى قصْرِ الملك ، وجَلسا يتحدَّثان ، وأقبلَ شهريار على أخيه بِكلِّ حواسِّه يُلاطِفُه ويُسامِرُه ، ولكنَّ أخاه كانَ شارِدَ



شهريار يخرج لملاقاة أخيه خارج المدينة

الذِّهنِ ، مُبلْبَلِ الفِكرِ ، مُضطرِب الأعصاب ، لا يُفارِق خَيالَه ذلك المنظرُ الذى خلَّفه وراءه .

لاحظَ أخُوه ما يُساوِرُه من وَساوِسَ وأوْهام ، فظنَّ أن ذلك بسببِ مُفارقتِه بلادَه ، وظَنَّ أن طُولَ مُقامِه معهُ يَجْعلُه يَسْلو بعضَ الشيء ، فيعْتَدِل مِزاجه ، وتَهْدأ نفسُه .

إلا أنه ظلَّ ساهِماً مُفكراً ، وقد أثَّرَتْ هذه الحالةُ فيه ، فشَحبَ لونُه ، وذاب شَحمُه ، وهُزِل جِسْمُه ، فسألهُ أخوه عما به ، فأخْفى عليه الحقيقةَ ، وقال : إنّه رجلٌ مَمْعُود ، وهذه العِلّةُ هى التى أضنَتْه ؛ فهيَّأ أخُوه رحلةً طويلةً للصَّيْدِ والتريُّضِ ، وطلبَ إليه أن يَصْحَبَه ، لعلَّ ذلك يُفِيده ؛ ولكنَّه أبَى .

خرجَ شهريار للصَّيدِ ، وخلَّف شاه زمان فى القَصْر ، وكان فى القَصْرِ طِيقَانٌ تُطِل على حديقَةٍ واسِعَةٍ ، فلم يَمْضِ على خروجِ شهريار إلا قليلٌ حتى خَرجتْ زوجتُه ، ومعها الجوارى والعبيد ، وجلَسوا على حافَّةِ فَسْقِيَّة فى وسط البُستان ، وأخذوا يَشربُون ويلعبُون ويغنُّونَ جميعَ النهار .

رأى شاه زمان ذلك المنظرَ من طِيقان القصرِ ، فعلِمَ أن هذهِ من تِلْكَ ، وأن ما كانَ عندَه هو بَعضُ ما شاهدَه عندَ أخيه ، فهُو أحسنُ حالًا ، وأقلُّ شناعةً ؛ وبدأتْ وساوِسُه وأوهامُه تخفُّ وطأتُها ، وتزولُ حِدَّتُها ، وتغيرتْ نفسُه ، وتبدَّلتْ حالُه ، وأقبلَ على طَعامِه وشرابه ، وبدأتْ نضارَتُه تعودُ إليه .

عادَ أخوه من رِحلتِه ، فوجدَه فى صحةٍ وعافيةٍ ، فسُرَّ لذلك ، وسألَهُ عن حالِه ، فقال :

أما سَببُ عِلّتى فأذكرُه لك ، وأما سبَبُ عافِيتى فليُعْفِنِي منه أخى .

فقال شهريار : اذكر لى سَببَ علّتِكَ أولا .

فقصَّ عليه قصةَ الجوْهَرَةِ ، وما كان من أمْرِ زوجتِه .

ألحَّ عليه بعد ذلك شهريار أن يَقُصَّ عليه قصة شفائِه ، فاستَعْفاه ، فلم يُعْفِه ، وأصرَّ على ذلك ، وأقْسَمَ عليه : ليُخْبِرنَّه .

فلم يَرَ شاه زمان بُدًّا من ذلك ، وقصَّ على أخيه قصة زوجتِه والجوارى والعبيد ، وما كان منهم حول الفسْقيةِ جميعَ النهار .

أراد شهريار أن يستيقن من الأمرِ ، فأذاع أنه سيعود إلى الصيدِ ، وأعدَّ العُدَّةَ ، وخرجَ مع من اختارَ من حَاشيتِه . وبعد أن خرج ، وصار على مَرْحلةٍ من المدينةِ — حطَّ الرحالَ ، وأمر ، فنُصِبَتْ الخيام ، ودخل خيمتَه ، وأمر ألاَّ يَدخُل عليه أحدٌ ؛ وبعد قليلٍ خرجَ مُتنكرًا ، وعادَ إلى قصرِه ، وجلسَ مع أخيه يرقُبُ ما يَحْدُث ، فرأى مثلَ الذى رآه أخُوه من قبْل .

اتفَق الأخَوان على أنْ يَسيحا فى بلادِ اللهِ ، فخرَجا ، وسارا يتنقّلانِ من قطرٍ إلى قُطرٍ ، ومن بَرّيّةٍ إلى بريّةٍ ، حتى وصَلا إلى مَرْجٍ أخضرَ على شاطِىء بحرٍ ، وكان التَّعبُ قد نال مِنهما منالا عَظيما ، فجلسا يَستريحان .

وفيما هُما جالسانِ يَنْظُرانِ إلى البَحْر ، رأيا الماء يَضْطَرِبُ اضْطرابًا

شَديداً ، والموجَ يَعلو ويَهبِط ؛ ثم انفَلق الماء عن عَمودٍ طويلٍ أسود ، ضاربٍ فى الجوّ، متجهٍ نحو الشّاطىء .

خاف الملكان ، وأسرعا إلى شَجرةٍ قريبةٍ ، وصَعدا عليها ، طَلباً للنَّجاة ؛ وأخذَا يَنظُران : فإذا ذلك العَمودُ الأسودُ ماردٌ من الجِنّ ، طويلُ القامَةِ ، عريضُ الهامَةِ ، واسع الصَّدْر ؛ على رَأسِه صندوقٌ كبيرٌ .

خرجَ الجنى من الماء ، ووضَع الصندوقَ على الأرْض برِفْق ، ثم فَتَح أقفالاً كثيرةً كانتْ عليه ، ورفع غِطاءه ، ثم أخرجَ منه عُلبةً ، وفتحها ، فخرجتْ منها فتاةٌ شَقْراء ، فَرْعاء ، ذاتُ حسنٍ وجمال ، وفيها عُجْبٌ ودَلال :

ثم قال لها الماردُ : يا فتاتِي الجميلةَ الحسْناء ؛ اختَطفْتُك ليلةَ عُرْسِكِ ووضَعْتُكِ فى صناديقَ مُقْفَلة ضنًّا بك أنْ تقع عَليكِ عَيْن ، وحَمَلْتُك فوقَ رأسِى ، وسِرْتُ بكِ بعيداً ، لم تُعْفنى البِحار ، ولا البَرارِى والقِفار .

يا فتاتى الجميلَة الحسناء ؛ تَعبْتُ من طولِ السَّفَر ، وسأنامُ قليلًا لِأستَريح .

ثم وضَع رأسَه فى حِجْر الفَتاةِ ، وغَطَّ فى نَوْمٍ عَميقٍ .

تلفَّتَت الفَتاةُ حَوْلَها . فرأت المِلكيْن على الشجرةِ القريبَة منها ، فأشارتْ إليهما أن يَهْبِطا إليها ، فأشارا إليها أنَّهما يَخافان العِفريت ؛ فرفعت رأسَه عن حِجْرها ، ووضَعتْه على الأرض ، وذهبَتْ إلى الشجرَة ، وأنذرَتْهما إن لم يَنزِلا إليها فَستُغْرِى العِفريتَ بهِما ليَقتُلَهما ، فنزلا

إليها ، وقضيا معها وقتاً ، وأرتهما عِقدًا من الخواتِم ، وأخبرتهما أنّها خواتِم لناسٍ كانتْ تَلتقِي بِهمْ على غَفْلَةٍ من ذلك العِفريت ، كما التقتْ بهما ، وطلبت منهما خاتميهما ، فأعطياها الخاتميْن ، فأخذتهما ، وعادتْ إلى عِفريتها ، وأنامته فى حِجْرها كما كان نائماً

نظرَ كلٌ من الملِكيْن إلى أخيه ، واستعجبَ من أمرِ هذه الفتاة ، وعرفا أنَّ ما لقياه ليس إلا أمراً يسيرًا بجانبِ ما تفعله هذه المرأةُ مع العِفريت ، وأينَ هما من العِفريت ؟ !

فعادا إلى قصرِ شهريار الذى امتلأ قلبهُ حقداً على النِّساء ، وبُغضًا لهُن ، وآمن أن كيدهُن عظيم ؛ ولم يَدُر بخاطِره أن المرأةَ إنسانٌ ، وأنها ترى أن لها حقًا فِى الحياةِ كحقِّ الرجُل ؛ أما أنْ يُضيَّق عليها ، وتُحبَسَ وراء المقاصير ، أو توضَع فى الصَّنادِيق ، وتُحكَم من حوْلِها الأقفال — فذلك أمرٌ يجعلُها تحقِدُ على الرَّجُل ، وتُحاول أنْ تنتقِم مِنْه فى أىِّ صُورةٍ من الصُّورِ ، وإذا أرادت فعلتْ ؛ فلا الحُجّاب ، ولا المقاصِيرُ ، ولا الأقفال — تردُها .

لم يَدُر شىء مِنْ هذا بخاطر شهريار ، ولكنَّ قلبه زاد غِلظاً ، وصَلُبتْ عاطِفتُه . واستحجَر قلبهُ ، ودخَل القصرَ ثائراً ، وحزَّ عُنقَ زوجتِه والجوارِى والعبيد بِسَيفِه ، وألقَى بِرءوسِهم فى الفسقِيةِ التى كانوا يتنادَمُون حوْلها ، وأبغضَ النساء بُغضًا شديداً ، وأصبح لا يأمن لزوجَة ، ولذلك — زعموا — أنه كان يتزوّجُ الفتاةَ ، ولا يُعاشِرها إلا قلِيلا ، ثُم يَقتلُها .

فزّعَ هذا العملُ الناسَ، وهالَهم أن يتزوّجَ الملكُ بناتِهم، ثم يَقتُلُهنّ، فأخرجوا بناتِهم من المدينة، وأرسلُوهن إلى بلادٍ أخرى يَعِشْن فيها، نجاة بحياتهن، وفِراراً من تِلك المحنة التى تُصيبُهن بسببِ غضَبِ الملكِ، وكُرهه النّسَاء.

وذاتَ يوم طلبَ الملكُ إلى وَزيره أن يُحضِرَ إليه فَتاةً على عَادته، فبَحَثَ الوزير هُنا وهُناك عن فتاةٍ، فلم يَجِدْ، فضاقَت الدُّنيا فى وَجههِ، وذَهب إلى بَيْتِه حَزِيناً مَغْموماً، لأنه إن لَمْ يفعلْ فإنّ الملك سَيغضَب عليه، ويُنزل به العِقاب، وقد يَكونُ عِقابُه القَتْل.

كان لهذا الوزير بنتَان: كُبراها اسْمُها شهر زاد، وصُغْراها اسْمُها دنيا زاد؛ وكانت الكُبرى وَاسِعةَ المعرفة، كثيرة العلم: قَرأتْ كثيراً من سِيرِ المُلوكِ السابقين، ونوادِرِ الشعراء، وطرائِف الأُدبَاء، وأحاديث السُّمار وأخبار النُّدَماء.

فلما عَرفتْ شهر زاد سبب قلقِ أبيها واضطرَابه، وخَوفَه على نفسِه من بَطْشِ الملكِ ــ قالتْ له: يا أبَت؛ زَوّجْنِى هذا الملك، وأنا بَيْنَ أمْرَيْن، فإمّا أن أنْجُوَ ويَنْجوَ معى بنات جِنْسى من طُغْيانه وجَبَرُوتِه، وإمّا أن أمُوتَ وأكونَ فداءً لكَ.

قال لها أبوها: يا بُنَيّتى، باللهِ عليكِ لا تَفعلِي، فإن حياتَك أعزُّ عَلَيَّ وأغلى عِندى من كلِّ شىء.

قالت شهرزاد: لا بُدّ من ذلك يا أبَت.



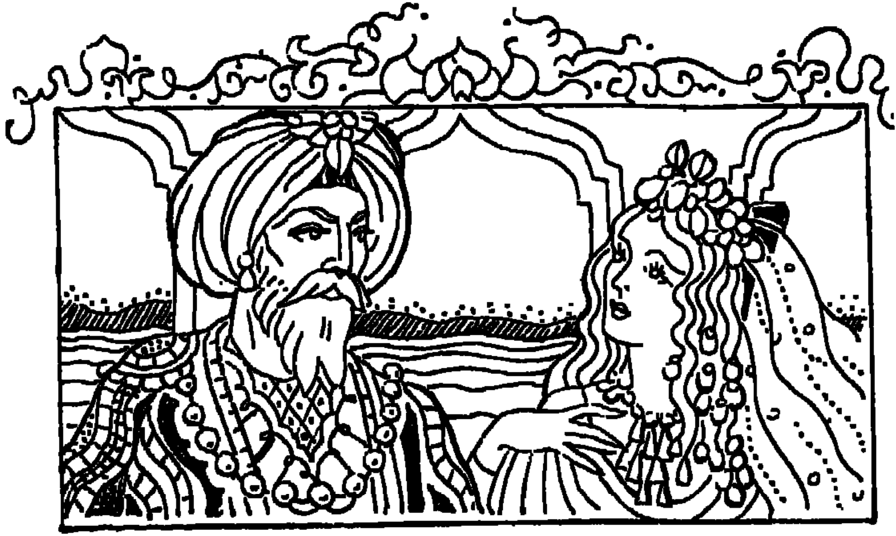
شهرزاد تقص قصصها

وأصرَّتْ على أن يُقدِّمها أبوها للملك ، فلمْ يجدْ بُدًّا من تَجْهِيزِها ، والخُروجِ بها إلى الملك شهريار .

أوصتْ شهرزاد أُختَها دنيا زاد أن تُعجِّلَ بالذَّهاب إليها حينَما تَطْلُبُها ؛ فإذا لَقِيَتْها طلبتْ إليها أن تُحدِّثَها حَديثاً طَريفاً ، تَقْطَع به الليلَ أو شَطْراً منه .

خرجتْ شهرزاد مع أبيها إلى الملك ، فلما رآها فَرِح بها ؛ ولكنَّها بكَتْ وانتَحَبَتْ ، فسألهَا الملكُ عمَّا بها ، فقالت : أيها الملكُ السَّعيد ؛ إنَّ لِي أخْتاً صغيرةً أرِيد أن أراها وأُودِّعَها ، لأن الوَزير عجَّل بإحْضارِى إليكَ ، فلم أتمكَّنْ من رُؤْيتها .

فأرسَل الملكُ إلى دنيا زاد ، وأحضَرَها ، فعانقَتْها أُخْتُها وقبَّلتْها ، وجلستَا تَتحدثان ؛ فطلبتْ دنيازاد من أُخْتِها أن تُحدِّثَها حديثًا فيه تَسْلِيةٌ لها ؛ فاستأذَنت شهرزاد الملكَ فى ذلك ، فأذِنَ لها ، وبَدأتْ تقُصّ قِصَصها التى سنُقدمها لكَ ؛ وقَصَّتها — فيما يَزْعُمون — فى ألف ليلة وليلة ، وكانَ الملكُ كلما انقَضَتْ ليلةٌ أمْهَل شهرزاد لتُتِمّ له حديثَها الذى أحبَّه فى الليلةِ المقبلةِ ، وكُلَّما مضتْ ليلةٌ حنَّ إلى تَمام الحديث فى الليلةِ التى تَليها ، وهكذا نجحتْ شهرزاد فى صَرْف الملكِ عن تلك العادةِ القبيحةِ ، عادةِ قتلِ النساء بعد مُعاشَرَتِهِنّ .



الملك شهرمان والملكة جلنار

بَدْرباسِمْ

(١)

حكمَ بلادَ العجَمِ فى زمنٍ من الأزمانِ الغابرةِ ملكٌ يُقالُ له الملكُ شهرمان ، وكان يُقيمُ فى مدينةٍ تسمى البيْضاء ، وهى إحْدى مدنِ خُراسان .

لم يَرْزُق اللهُ هذا الملكَ أولاداً ، لا ذُكوراً ولا إناثاً ، لذلكَ كانَ دائِمَ الحُزْنِ ، وكانَ القلقُ يُساوِرُه ، وينَغِّصُه؛ ويُقِضُّ مضجَعه ، لأنه سَيتْرُكُ ذلكَ المُلْكَ الواسِعَ العرِيضَ من غيرِ أن يَخْلُفَه عليهِ ولدٌ له ،

وبينما هو في مجلسه ذات يوم دخل عليه أحدُ مماليكه ، وأخبره أنّ بالباب نخاساً معهُ جارية ، لم يَرَ أحسنَ منها ؛ يعرِضُها للبيع ، ويَضِنّ بها على غيرِ الملك شهرمان .

فقال الملك : أدخِلْه هو والجارية .

قالَ ذلك على الرّغْمِ من أنّه لم يكُن يَشعرُ بميلٍ إلى رُؤْية الجاريةِ أوْ شرائها ، ففي قَصْرِه أكثرُ من مائةِ جَاريةٍ من الجواري الفاتنات ، لم تأْتِهِ واحدةٌ منهن بما يتُوق إليه ، وتَتلَهّفُ نفسهُ عليه ، وهو وليّ العهدِ الذي يُوَرِّثُه مُلكَه ، وتمتدُّ به حياتُه .

دخل التاجرُ تصحبهُ جاريةٌ فارعةٌ ممْشوقَة ، مؤْتزِرَةٌ بإزارٍ من حَريرٍ ، مُزَرْكَشٍ بخُيوط الذهبِ . فلما اقْترَبا من الملِكِ مدّ التاجرُ يدَه وأزاحَ نِقابَ الجاريةِ ، ونَظرَ الملكُ إلى وجهِها فَبهرَه ما رَأى . رَأى وجْهاً جميلًا ، ولكنه جَمالٌ فاتِنٌ عجيبٌ يَفُوقُ جمال جميعِ النساء والجواري اللّائِي يَزْحَمْنَ قَصرَه ، كان جمالًا يَشِعُّ نوراً يأخذُ العين ، ويخْلُب العقلَ ، وقد أسدلتْ حولَه سبعَ جَدَائِلَ من الشّعر ، فنزلَتْ حتى قَبّلَتْ موضعَ الخلخالِ منها ؛ فتعجّبَ الملكُ من فرطِ جمالِ الجارية ، وسُرَّ لرُؤْيتها ، وتاقتْ نفسُه إلى شرائِها . فقال للتاجِرِ : بِكَمْ يا شيخ هذه الجارِية ؟

قال التاجر : يا مَوْلاي ؛ اشتريْتُها بألفَيْ دِينارٍ ، وأنفقتُ في طَعامها وكسوتِها وسَفري وسَفَرِها حتى حضرنَا إلى هُنا ألف دينارٍ ، وقد بَخِلْتُ

بها على جميع الناسِ ما عدا الملكَ شهرمان ، فقَدِمْتُ بها إليكَ ، متحمِّلًا مشَقاتِ السفَرِ ونفقاتِه ، لا أُريدُ من ذلك أن أربحَ مالًا ؛ وإنما أُريدُ إهداءها إليك .

فقبِلَ الملك منه الهديةَ وشكرَ لَهُ ، وخَلَعَ عليه خِلْعةً سنيّةً ، وأمر لَه بعشْرةِ آلافِ دينار ، قدَّمها له خازِنُ مالِه ، فأخذَها ، وقبّل يَدَى الملكِ ، وانصَرف .

ودعا الملكُ بالمواشِط ، وسلمهنَّ الجاريةَ ، وقال لهن : تولَّيْنَ شُئون هذه الجارِية وزَيّنَّها ، وهَيِّئْنَ لها مقصورةً تستريح فيها .

فقلن : سَمْعاً وطاعة .

وأمرَ الملكُ الحجّاب أن يَنقُلوا إلى مقصورةِ الجاريةِ جميعَ ما تحتاجُ إليه ، ففرشُوها بفاخِر الفِراشِ ، وأثّثوها بأفخَمِ الأثاث ، وغطَّوْا أرضَها بالأبسطَةِ والسجاجيدِ العجميَّةِ ، وثبّتُوا فى سقفِها الثريّات التى كانتْ تضاء فتَجعلُ ليْلها نهاراً ، وأعدُّوا لها ستائرَ من الحرير والدِّيباجِ ، أُسدِلَتْ على نوافذِها ، فكانَ النسيمُ يداعِبُها فتَماوَجُ معه ألوانُها الزاهيةُ الخضراء ، وصُفَّت الأرائكُ فى جوانب الحجراتِ ، يجْلسُ عليها المُتعبُ فيَستَرِيح .

وأُدْخلت الجاريةُ إلى مَقْصورتِها التى سَتُقيم فيها .

وبعدَ أيامٍ فكّرَ الملكُ فى زيارةِ الجاريةِ ، فذَهبَ إلى مقصُورتِها ودخلَ عليها فوجدَها جالِسةً مُطْرِقَةً ، لم تتَحَرّك لدُخوله ، ولم تَنْهضْ

لاستِقْبَاله . فكأنّها لم تَعبَأ به ؛ فعَجِبَ لشَأنِها ، وقال لنفسِه : لا بُدَّ أنها كانتْ عندَ قوم لم يُعَلِّمُوها آداب اللّياقةِ ، أو أنها مُسْتوحِشَة تَشعرُ بالرَّهبَةِ فى هذا المكانِ الغريبِ عليها . فجلسَ بجانبِها ، فلم تَلتَفِتْ إليه . وظلَّتْ مُطرِقةً ساهِمَةً . فأمر بإحضارِ طعامٍ . ودعَاها إليْه ، فلم تُلَبِّ دعوتَه ؛ فجلسَ هو يَأكُل ، ولكنَّه عَزَّ عليه ألّا تُشارِكه فى طَعامِه ، فكان يَأخُذ لُقمَةً ويَضَعُها بيدهِ فى فمِها فتَقبلُها راضيةً ساكتةً ، ثم أخذَ يحدِّثُها ، ويُلاطِفُها ، ويُداعِبُها ، ويتَودَّدُ إليها ، ويسألُها عن اسْمِها وأحوالِها ، ولكنَّها ظلَّتْ على إطْراقِها ، وسُهومِها ؛ لا تُلْقِى إليه بالا ، ولا تَنْظُر إليه نَظْرةً .

فدهِش من أمرِها ، وبدأ يَغضَبُ عليها ، ويثُور ، ولم يَحْفَظْها منه ويشفَع لها عندَه إلا باهِرُ جَمالِها ، وعظِيمُ حُسْنِها .

وقال لنفسِه : سبحانَ من يَخْلُق هذا الجمالَ فى جاريةٍ ، ولكنَّها لا تَتَكلَّم ، فما الكَمالُ إلا للهِ وحْدَه !

ونادَى الجوارِى ، وسألَهنَّ : هل تكلَّمت هذه الجاريةُ معكنَّ حينَما خَلَوْتُنَّ بها .

فقلن : من حِين قُدومِها إلَى الآن لم تَتكلَّم كلِمةً واحدةً ، ولم نَسْمَعْ لها صَوْتاً .

فطلبَ الملِكُ الجوارىَ المُغنِّيات ليَحضُرنَ فيُغنِّينَ لها لعلَّ هذا يَشْرَحُ صدرَها ، ويُسَرِّى عنها ما عسَى أنْ يكونَ بِها منْ وَحشةٍ ، أوألَمٍّ بها من ألَمٍ وضِيق .

لخضرْنَ ، وغَنَّيْن ، ولعِبنَ ، وأتَيْنَ بجميعِ ما يُطْرِبُ وما يُبْهِجُ ، حتى طرب وضجَّ بالضَّحِك كلُّ من فِى المَجْلِس؛ والجارِيةُ تَنظُر إليهِنَّ صامتةً لا تَضْحكُ ولا تتكلَّمُ ، كأنَّها تِمْثال لا يَعِي ، ولا يَسْمَعُ .

فضاقَ صدْرُ الملِك ، وازدادَ عجبُه أنْ تكونَ جاريةٌ على هذا الجانِبِ الكبيرِ من المَلاحةِ ، ويكون هذا حالها ! ولكنَّه مع ذلك مالَ إليها ، وصمَّمَ على أنْ يعرِف ما خَفِي من أمْرِها ، فهَجَرَ جميعَ جوارِيه ، وأصْبَح يَصْرِفُ كل أوقاتِ فراغه عندَها : يُحادِثُها بالأحاديثِ الفَكِهةِ ، ويقُصّ عليها الأقاصيص المُضْحِكة ، وهى على حالها لا تَتكلَّمُ ولا تَنْطِق .

ومرّ عامٌ والجارية على حالها تُطعَم وتُسْقَى ، ولكنَّها لا تَزالُ ساكتة صامتةً كأنها خَرْساء بَكْماء ؛ وفى كلِّ يومٍ يُحاوِلُ الملك وجواريه معَها محاولةً جديدةً لعلَّها تُغيِّرُ من خُطَّتِها ، أو لعلَّ اللهَ يُنْطِقُ لسانَها ؛ ولكنّه لم يَظفَرْ منها بطائلٍ .

فيئِس منها ، ونَفِدَ صَبرُه ، ولم تَعدْ له قدرة على احْتِمالها ، وقال لها : يا مُنيةَ النفْسِ ، إن محبَّتَك عندِى عظيمةٌ ، وقد هَجَرْتُ من أجْلكِ كافَّةَ الجوارى والنساء ، آمِلا فى أن يَلِينَ قلبُك فتُكلِّمِينى ؛ فهل أنت خرساء حتى أحادثك بالإشارة ؟ وإنْ لَمْ تكونِى خَرساء فأعْلِمينى حقيقةَ حالك فقد أصْبحتُ فى حَيْرةٍ من أمْرِكِ ، وحُزْنٍ من أجْلك ، فوق حُزنِى على نفسى لعدمِ إنْجابى غُلاماً يَرِثُ مُلكى من بَعدِى . فبالله عليكِ : رُدِّى علىّ بالجواب الّذى يَشْفِى نَفْسِى ، ويَهْدأُ له قَلْبى ،

ويرتاحُ ضميرِى . فأطرقَتْ الجاريةُ كأنّها تفكّرُ تفكيراً عميقاً . ثم رفَعتْ رأسَها وتبَسَّمتْ فى وجْهِ الملكِ ابتسامةً خفيفةً رقيقة ، استبان منْها أن وَراء هذه الابتسامةِ فَرَجاً ، وخُيِّلَ إليه أن الشَّمسَ قد سَطَعتْ من بينِ الغَمام ، وأن القَمَر قد بَزغَ فأنارَ الظلامَ ، وانتَعشَتْ نفسُه ، وانشرحَ قلبُه ، واتّسعَتْ أمامَه الدنيا ، وانفَتح بابُ الأمل ، وخاصّةً حينَما سمِع صوتَها لأوّلِ مرّةٍ ، وقد بدأتْ تقُول فى تُؤَدَةٍ وهدُوء :

أيُّها الملكُ الهمامُ ، والأَسد الضِّرْغامُ ، أبْشِرْ ، فقد استَجاب الله دُعاءكَ وحقَّقَ لك آمالَك ، فإنى حَاملٌ منْك ، وقد آنَ أوانُ الوضْعِ . ولولا أنّى حملْتُ منك ما كلَّمْتُك كلمةً واحدة .

فما سمِع الملكُ قول الجاريةِ ، حتى غَمرتْه موجَةٌ من السعادةِ ، واهتزّ هزّةَ الفرحِ والسرور ، وأحسّ أنّه فى حياةٍ جديدةٍ جميلةٍ لا عهدَ لهُ بها ، وتفتَّحتْ أمامَه آفاقٌ واسعةٌ يلوحُ له الأمَلُ فيها برّاقاً خلاّباً باسِماً ، وشعَر أنّ ماء الشبابِ قد عادَ يَسْرِى فى جسْمِه بعد نُضُوبِه ، فيُنشّطُه ويُنعِشُه . فنهضَ إلى الجاريةِ خفِيفاً متهلّلاً فرِحاً ، يَطفُر دَمع السرورِ من عَيْنيْه ، واحتواها بين ذِرَاعيه ، يُمطِرُ رأسها قبلات كلُّها حنان وعَطف ، ثم أنشأ يقول :

الحمدُ لله الذى مَنّ علىّ بما كُنتُ أرجُوه وأتمنّاه ، فأسعدَنِى بكلامِك ، وأنالَنِى أُمنيَّتِى التى كانتْ كلّ رجائِى فى الحياة .

ونهضَ من فَوْرِه ، فَعقَد مَجلِساً ، جمعَ فيه وزراءه ، وكبارَ رجالِ

دولتِه ، ثم زفّ إليهم النبأ السعيدَ ، وكان قد بَرقتْ بارِقتُه فى أذهانهم ، حينَما وقع نَظرُهم على وَجْه الملك الذى نطقَتْ به قسماتُه قبل أن يَنطِق لسانه ؛ وما كادُوا يسمَعون من الملِك مبدأ الخبَرِ حتى عرفوا مُنْتهاه ، فانهالَتْ عليه التّهانى من الحاضِرين ، ثم تسابقَ الناسُ إلى القصرِ يهنئُون ملكَهم حينما شاع الخبرُ فى أرْجاء المدينة .

وأبى الملك إلّا أنْ يُقاسِمَ شعبه فى فَرحِه ، ولم يَنْتظر حتى تَتِم البشرى ، فأمر بِنَحرِ الذبائح ، وتوزيعِ لُحومها ، وتصدّقَ بمبالَغ كبيرةٍ من المالِ على الفقراء والمساكين .

وصعد الملكُ بعد ذلك إلى الجاريةِ التى بدّلتْ من تعاستِه سعادة ، ومن شقائِه هَناءة ، وأنارَتْ له حياتَه التى كانتْ تَكتَنِفُها الظلُماتُ ، وكانتْ تُحِيطُ بِهَا وَساوِس وأوْهام نغَّصتْ عليه عيشَه ، وقال لها : والآن أخبريني يا حبيبتى لماذا كانَ سكوتُك عن الكلامِ كلّ هذا الزمَنِ الطويل ؟ !

وكيف كانَ صبرُكِ وجلَدك عليه ؟ !

ولم سوّلَتْ لكِ نفسُك تَعذيبى وإيلاَمى كلّ هذا الوقت ؟ !

قالت الجارية : يا سيِّدى ما قصدْتُ تعذيبك ولا إيلامَك ، فما أنا إلا فَتاةٌ مسكينةٌ غريبةٌ ، حزينةٌ لفراق أهْلى .

قال الملك : أما أنّك مسكينةٌ ، فليسَ هذا الكلامُ صحيحاً ، فإن جَميعَ ما أملِكُ تحت أمرِكِ ، وكل من يخْدمُني فى خدمتك ، وتَزيدين علىّ أنّى

أنا في خِدمتك أيضاً ؛ وأما أنك حزينةٌ لفراقِ أهلِك ، فلماذا لم تَتَكلّمي وتُعَرِّفيني مكانَهم ، فأحضرَهم لكِ على الفَوْرِ ؟!!

فتنهّدَت الجارية تنهدةً عميقة، صعدت من أعْماقِ قَلبها، وقالت للملك :

إعلم أيّها الملكُ السعيد أن اسمى جُلّنار البَحرِية ، وكان أبي من مُلوك البحر ، مات وخلّف المُلْكَ لى ولأمى ولأخٍ لى اسمه صالح . فاستَضْعَفَنا وطَمِع فينا مَلكٌ من الملوك المجاورين لنا ، واعتدَى علينا ، واغتَصَب منا مُلكَنا . فتنازَعتُ أنا وأخى ، وصار كلٌّ منّا يُحمِّل الآخر تبِعةَ ضَياع مُلكِنا ، ويتهمُه بسوء التّصرف ، فغضبت أنا ، وأقْسَمتُ أنى سأُلقِي بنفسى إلى رَجلٍ من رجالِ البَرِّ . وخرجْت من البحر ، وجلست على صخرةٍ قربَ الشاطىء فى ضَوء القمر فمَرّ بى رجلٌ ، ورآنى جالسةً وحيدة وسطَ هذا الليلِ ، فأخذَنى إلى منزله ، وطمِع فىَّ لنفسِه ، فنفرْت منه ، وضربتُه على رأسه حتى كدْتُ أقتُلُه ، فخرج بى وباعَنى لهذا الرجل الذى أخَذْتَنى منه ؛ وهو رجلٌ رفيقٌ تقِيّ فيه صلاح ومروءةٌ ؛ ولولا أنكَ أحبَبْتَنى وقدمْتَنى على سائر نسائك وجوَاريك . لما مكثْتُ عندك ساعةً واحدة ، ولكنتُ ألقيْتُ بنفسِى من هذا الشُّباك المُطِل على البَحر ، وعدْتُ مستغفِرة إلى أُمّى وأَهلى ، وكنتُ كلما استوْحَشْتُ ، حَدَّثتْنى نفسى بالعَوْدَةِ إلى أهلى ، وظلّت تراودُني كلَّ يوم حتى تَبَينْتُ أَنِّى حاملٌ منك ؛ فخجِلْت أن أسير إلى أهْلى ، فيظنُّوا بى الظنُون ، وقد لا يصدّقونى

إذا أخبرتُهم أنى حاملٌ من مَلك اشترانى بنقوده ، وأفردَنى فى قلبه ، واختصَّنى به من دُونِ نسائِه وجواريه .

استمع الملك إلى قِصّتِها مدهوشاً مشدوهاً ، وقد أخذته الحَيْرَةُ ، وتملّكه العجبُ ؛ وما انتهتْ منها حتى نهضَ إليها ، فقبّلَ جبينَها ، وقال لها :

يا قرّة عَيْنى ، لقد أسرتِنى وملكتِ قلبى ، فكيفَ كنتِ تفكّرين فى ترْكى ، والذهاب عَنّى ؟ ! أخبرينى عن الطّريق إلى أهلك ، وكيف نصلُ إليهم ، فأُحضرهم ، وأشرح لهم حالك ؟ .

قالت جلنار : نَعَمْ ، لقد آنَ أوانُ الوَضْع ، ولا بُدَّ من حضورهم ، وإعلامِهم حالى ، وسأعْمَل أنا عَلَى استدعائِهم وحُضورهم

فقال الملك متسائلا : ولكن كيفَ يَعيشون فى البَحر ؟ وكيفَ يكوّنون الممالك ؟ وكيف يتحاربون ؟ ولا يبتلّون ولا يغرقون .

فقالت : إنّا نمشى فى البَحْر كما تمشون أنتم فى البَرّ ، ونَعيشُ كما تَعيشون ، ونكوّن الممالك ، ونتحاربُ ونتصالح ، وذلك كلُّه ببَركة الأسْماء المكتوبة على خاتَمِ سليمان بن داود عليهما السلام . ونَحنُ نسيرُ فى البحر وعيونُنا مفتوحةٌ ونرى جَميع ما فيه ، ونرى الشّمسَ والقمرَ والنجوم والسماء كأننا عَلَى وجه الأرض ، ولا يضرُّنا ذلك .

وفى البَحر عوالِمُ كثيرةٌ ، وأجناسٌ مُختلفةٌ ، ولو قيسَ ما فى البحرِ إلى ما فى البر مِن العوالِم والأجناس — لكان ما فى البَرّ قليلاً جداً بالنّسبة

لِما فى البحر فازدادَ عجبُ الملك ودهشتُه من حَديثها ، وكان كأنه يسمعُ كلامًا غريبًا ، أو يسمعُ حُلْم نائم .

ثم تابَعت الحديثَ فقالت : أيُّها الملك السعيد ، إذا أحضَرتُ أهلِي وأخي فإنى سأُحدثهم بكل ما كانَ منك مَعى ، فإذا سمعْتَ ذلك الحديثَ فوافِقْنى عليه ، واجْعَلْهُم يَفهمون منكَ أنَّ هذا كلامٌ صحيح ، وأنَّ هذا هو حقيقة ما وَقع بَيْنِي و بينَك حتى لاتَدخُلهم ريبةٌ ، ولا يُساوِرَهم شَكٌ .

فقال الملك : لَكِ ما تَشائين ، وإنى سأَعملُ حسبَ رغْبتِك ، فافعلى ما بَدَا لكِ .

(٢)

أحضرتْ جلنار مَوْقدا ، وأوقدَت فيه النَّارَ ، وألقَتْ فيها شَيئًا من البخور ثم صفَرت صفرةً عالية ، وأخذت تُتَمتمُ بكلامٍ لا يفهم .

وبعدَ قليلٍ تَصاعَدَ من المَوْقِدِ دُخانٌ عظيمٌ ، تصاعَد وانتَشرَ حتى ملأَ المكان ، فالتفتَتْ جلنار إلى الملِك وكان جالسًا يُراقِبُها ، وقالت :

يا مَولاى ، قُمْ واختْبِئْ فى ذلك المَخْدَع القريبِ ، حتى ترَى من وَراء سِتار أخى وأمى وأهْلى دون أن يروْكَ ، فإنهم سيَحْضُرون الآن ، وسأتحدث إليهم كما أخبرتُك منْ قبل .

فنهضَ الملك ، ودخلَ المخْدَع ، وأخذ ينْظر خِلْسَة إلى ما تَفْعل .

وواصَلت هى التَّبخير والتمزيم ، وازداد تصاعُدُ الدّخان ، وأرْغى



أهل جلنار (أخوها وأمها وبعض الجوارى خارجون من البحر)

البَحرُ الذى كان بنتُ الملك يُشرِفُ عليه ، واضطَرَبَ ، وعلَتْ أمواجُه وظهَرَتْ من خلال النافِذَة .

ثم ظهرَ على وجهِ الماء شابٌ جميلٌ وسيم ، بهىُّ الطَّلعةِ ، قَريب الشبَه بجلنار .

ثم تبِعَته عَجوز ، تَصْحبُها بضعُ جَوارٍ مليحات . كأنَّ وجوهَهُنَّ الأقمار ، هن بنات عَمِّ جلنار ، وساروا جميعاً على وَجْه الماء حتى اقترَبوا من النَّافِذَة ، ورأوا جلنار ورأَتْهم ، فَدخلوا إليها ، وعانقوها وقبَّلوها وهمْ يَبكون ، وقالوا لها : يا جلنار ، كَيْف تُطاوعُك نفسُكِ على تَرْكنا كلَّ هذه المدَّة ، دونَ أن نَعرِفَ المكان الذى أنْتِ فيه ، حتى كِدنا نَفقدُ الأملَ فى رُؤْيتِك ، وضاقَت بنا الدُّنيا ، وأظْلمت فى أعْيننا لفراقك وضَعُف الأمَلُ فى لِقائِك ؟ ! وكنا كلما طالَتْ غيبَتُك اشتَد شوقُنا إليك ، وازداد يأسُنا رُوَيْدًا رُوَيْدًا ؛ ولكنَّ الله أخْلفَ ظَنَّنا ، وقدَّر لنا خَيْرًا مما قدرْناه لأنفُسنا ، فجمَعَنا بكِ بَعْد يَأس .

فقبَّلتْ جلنار أمّها وأَخاها ، وبناتِ عمّها ، وأخَذتْ تعتَذِر عما سبَّبَتْه لهم من الآلام ؛ فسألُوها عن حالِها . وعما حَصل لها من حين تَرْكِها إياهم . فحدثَتْهم بما كان من أمْرِها ، وما حدَث لها ، حتى صارت صاحِبَةَ المنزلة الأُولى عند ملِكِ هذه المدينة .

فقال أخوها : الحمدُ لله الذى جَمع شملَنا يا أُخْتى ، ولَمّ شَتاتنا ، وأَوَدّ الآن أن تَعُودى معنا إلى بِلادِنا لتَعيشى مع أَهْلكِ وعشيرَتِك .

وسمع الملك من مَخْبَئِهِ هذا الحديثَ . فكاد يُجَنّ خَشْيةَ أن تُوافِق جلنار على رَأْى أخيها ، فتُطيعه ، ولكنه غالبَ نفْسَه ، وضبَطَ شُعورَه ، وضغَط على أعصابه ، وجلس ينتَظِر ما يحدُثُ وهو على أحرَّ من الجمْر .

فسمِع جلنار تقول : يا أخى : إن الملكَ الذِى اشترَانى ملكٌ عظيم ، عاقلٌ كريمٌ ، أحسنَ إلىّ ، وأنزلَنِى من نَفْسه منزلةً عالية ، وأحَلَّنِى بين أهله وزوجاته محَلاًّ رفيعاً وهوَ وحيد ليسَ له ابْن ولا بنتٌ ، وأنَا الآن حاملٌ منه ، وقد جعلَنِى مناطَ أمله ، ومحط رَجائِه ، فلاَ يليقُ بِى أنْ أجْحَد فضلَه ، وأنكِر مَعْروفَه ، وأخُون عهدَه ، وقَدْ يكُون الجَنِين الَّذِى أحمِله فى أحْشائى ذكرا . فيكُون وارثَ عرشِه ، وصاحبَ مُلكه ، وأنا أحمَد الله على أنِّى بِنْت ملكِ البَحر ، وزَوْجِى أعظَم ملوكِ البَر ، ولو كان أبِى حيًّا لما كنْتُ عندَه أعز مِمّا أنا الآن ، فهوَ لى أبٌ رحِيم ، وزوجٌ كريمٌ .

فلما سمِع أخوها وأمُّها وبنات عمِّها مَدْحَها فى زَوجِها ، ورغبتها فى مُعاشرته ، وسرورها بالمُقامِ معه — اطمأنُّوا ، وارتَاحتْ نفوسُهم لراحتها . وقالوا لها : يا جلَّنار ! إنّكِ تعلَمِين منزلتَك عندنا ، وتعرِفِين محبّتنا لك ، وتُذْكِرين أنكِ أعزّ الناسِ علينا ، وأحبّهم إلينا ، وأقربُهم إلى قلوبنا ، ونُفوسُنا متعلقةٌ بك ، وأفئِدتُنا مشْغُوفَة بحبّك ، وما رغِبْنا إلا فى راحَتِك وهناءتك ، فما دمتِ ترتاحين إلى إقامتِك هنا فلا اعْتِراضَ لنا عليك ، وأنتِ التى تقَدِّرين لنفسِك موضعَ سعادَتِك . أما إذا كُنْتِ

تشعُرين بضيقٍ، أو سأم وملالةٍ — فهيا معنا إلى بلادنا .

فقالت جلنار : أُقسِم لكم أني على أتمّ راحة وفى غايةِ السرور ، وأنى راضيةٌ بحالتى كلّ الرضا ؛ وسعادتى لا تَعْدِلُها سعادة .

وسمِع الملك من مخبئِه حديث جلنار ، فسُرّ وفَرِح ، واطمأنّ قلبُه ، وأثّر فى نفسِه موقفُها منه ودفاعُها عنه ، فعظُمتْ فى عينِه ، وأدْرك أنّها تحبُّه وتُعزّه ، فازدادَ حبًّا لها ، وعظُمت مكانَتُها فى نفسه .

وأمرت جلنار جواريها بإحْضارِ الطعام ، فأحضرُوا مائدةً حافلةً بسائر أنواع الأطعمة الشهيّة .

ودعت أهلَها إليها ، وتَهيئُوا جميعاً ليتَناولُوا الطعام . ولكنهم قبل أن يَمُدوا أيْديَهم إليه أحسُّوا أنهم لم يَرَوْا ذلك الملك ، فلم يَلبَثُوا أن قالوا لها : يا جلنار إن زَوْجَك غريبٌ عنا ، وقد دَخلْنا منزله على غَيْرِ علمٍ منه وكِدْنا نأْكل من طَعامِه ، وأنتِ تَمْدَحينَه لنا ، وتَشكُرين فضلَه عليك فَأيْن هو ؟ لم يَأتِ ليَرانا ، ولم تَستَدْعِيه لنراه . فَسَكَتَتْ بُرْهَةً ، حتى شَكُّوا فى أمْرِها .

وبدا على وجوههم التّغيُّر ، وكأنهم شَكُّوا فى صِدْق حديثِها فانْصَرفُوا عن المائِدةِ ، واربَدّتْ وجُوههم ، واشتَدّ بهم الغضَبُ وأرغَوْا وأزبَدُوا ، وأخَذُوا يَنفثُون من أفْواهِهم حمماً ، وهدَرُوا كما تهدرُ الجمال .

فارْتعب الملك خَوْفًا منهم على جلنار التى نهضَتْ ، فطيَّبتْ خاطرَهم ودلفت إلى المَخْدع الذى فيه زَوجُها الملك ، وقالت له :

يا سيِّدى ؛ هل رأيتَ أهْلى ، وسمعتَ ما قالُوا ، وما قُلت ؟ .

فقال لها الملك : نَعَم ، رأيتُ وسمْعتُ ، جزاكِ اللهُ عنِّى خيرًا ، فقد ثبَت لدَىَّ عِظَمُ محبّتك ، وإعْزازك إيَّاى .

قالت جلنار : ياسيِّدى : ما جَزاء الإحسانِ إلا الإحسان ، والآن ألَا تتفضَّل بالحُضور لمعرفَةِ أهْلى ، والتسليم عليهم ، قبل ذَهابِهم ؟

قال : هيَّا ، فهذه هى رَغْبَتى .

وخرَج معها من مخبَئِه ، وتوجَّه نحوَهم حيثُ كانوا يَنْتظِرُون ،

فلما اقتربَ منهم سلَّم عليهم ، ورحَّب بهم أحسنَ تَرحيب . وأمَّا هُم فإنهم بادَرُوا بالقيام إليه ، وتلقَّوْه خيرَ لِقاء ، وهشُّوا فى وجهه وبشُّوا ، وانحنوا انحناءة التكبير والتبجيل ، ومدُّوا أيديَهم إليه مُسلِّمين ، فسلم عليهم فرِحًا بهم ، مسروراً بلقائهم .

ثم جلسَ الملك معهم على المائِدَةِ ، وأخذوا يتَناولُون جميعًا الطعامَ بين الضَّحِك والمسامَرَة ، والتَّنَدُّر والمفاكهة .

استضاف الملكُ وزوجته جلنار هؤلاء الضُّيوف ، وطلبا منهم أن يُقيموا عندهما بعضَ الوقت ؛ فلم يَروْا من ذلك بأسًا ، وبقُوا فى ضيافَتِهما نحواً من ثلاثين يومًا ، نالُوا فيها من إكرامهما ، والحفاوَةِ بهما — ما ألْهجَ ألسنَتَهم بالشكْرِ والثناء ؛ ثم رَغِبوا بعد ذلك فى العَوْدةِ إلى ديارِهم ، فطلبُوا من الملك الإذنَ لَهم فى ذلك ، فأذن لهم ، وودّع بعضهم بعضًا ثم

انصرفوا شاكرين ، على أن يعودوا إلى جلنار بين الحين والحين ليطمئنوا عليها .

استوفت جلنار أيام حملها ، وجاء أوانُ الوضع ، فاستعدّ القصر ومن فيه لاستقبالِ المولود الجديد السعيد .

ووافت الساعةُ ، وأقبل الوليدُ السعيدُ ، فأسعد بإقبالِه قلوباً ، وأحيا بقُدومه نفوساً ، واستقبلَه كلُّ من في القصر بالابتهاج والسرور ، وكلُّ مَنْ في المملكة بالاستبشار والحبور .

أقيمت الأفراح ، ودقّت الطبول ، ونُصبت الأعلام ، وأوقدت المصابيح ، واجتمع الناسُ يرقُصون ويغنُّون ، ويلعبُون بالعِصىّ ، وتسابقت الخيلُ ، وزغردت النساء ، وغنّيْنَ الأغانى ، وأنشدْنَ الأناشيد ، ولم يكُنْ ذلك فى حاضرة المُلْكِ وحدَها ، ولكنه كان فى سائرِ أنحاء المملكةِ ؛ واستمرّت الحفلاتُ العامةُ والخاصة ، قائمةً متواليةً سبعةَ أيامٍ ، تمتّع فيها الشعْبُ بكل ما كانتْ تتُوق إليه نفْسه من أسبابِ الترفيهِ والتّسليةِ والابتهاج التى حُرِمَها زمناً طويلا .

وفى اليوم السابع حضرت أمُّ الملكة جلنار وأخُوها وبنات عمها ، فقابلهم الملك ، وشهِدُوا خاتمةَ ليالى الفرح ، وقال لهم :

إنى لم أسمّ المولود بعد ، وانتظرتُ حتى تحضُروا فتَشترِكُوا معنا فى تسمِيتِه ، فاتفقُوا على تسميته « بدر باسم » واستَحسنُوا جميعاً هذا الاسم ، واعتبروه فألا حسناً ، يدلُّ على أنّ أيامه كُلّها أيّام سعادةٍ .

وعُرِض المولودُ على الحاضرين ، فصار كلٌّ منهم يُقبّله ، ويَدعو له الدعوات الطيبة ، وجاء دَوْر خالِه صالح ، فحمله واحتَضَنَه ، وسارَ بِهِ في أرجاء القصرِ كأنه يلاعِبُه ويُناغيه ، ولما اقتربَ من البحر ، سارَ على مائِه ، ثم غابَ به فيه .

فلما رأى الملكُ ما فعلَ أخو جلنار بولَدِه ، لم يملك نفْسَه ، فأجهشَ بالبكاء ، وانتحب انتحاباً شديداً ، ونشجَ نشيجاً مُحزناً ، وأظلمت الدنيا في عينيه بعد إشراق ، وغامَتْ بعد انقِشاع ، وأخذ يَضربُ كفا بكفٍ ، وقد تملّكهُ يأسٌ قاتلٌ ، وانقلبت الأفراحُ أتراحاً ، وخَيّم على المدينةِ سحابةٌ من حُزنٍ عميق .

نظَّفتْ زوجتُه إليه منزعجَةً لحاله ، وقالت له : يا ملكَ الزمان ، لا تَخف ولا تحزَنْ على وَلدِك ، فأنا أيضاً أُحبّ ولَدي وأخافُ عليه ، ولكنّه مع أخي ، فلا تقلق عليه من البَحر ، ولا تَخْش عليه الغَرق ، وسيَعُود أخي به الآن سالماً إن شاء الله .

ولم يمضِ غير قليل حتى هَاجَ البحر واضطربَ وانشَقّ ، وخرج منهُ خالُ الصغير ، وسار حتى دخلَ عليهم ، والصغير بَيْن يدَيْه صامتٌ لا يَبْكي ، ووجهُه كالبَدْرِ المنير وشَفَتاه باسِمَتان ، فهو « بدر باسم » ! فعاد الملك ورجالُه إلى حالهم من الفرح والسرور .

وعرفَ صالِح أخو جلنار حالَ الملك ، وما تملّكه من جَزع وفزع ،

وخَوْفٍ شديدٍ على ابنه، وما أصابَ أهل المدينة من حُزن شديد؛ فتقدم إليه وقال له :

لعلك خَشِيتَ على وَلدِك لمّا نزلتُ به إلى البحر !!

قال الملك، وقد تهلّل وجهُه بشراً، وعادتْ إليْه نَضرتُه، وجرى دمُ الحياة فى جسمه :

نعم لقد خَشِيتُ عليه، وما ظَنَنْتُ أنه يَسْلَم منه قط .

فقال صالح : يا ملك البَرّ؛ إنّا كحّلنَاه بكحل نَعْرِفُه، وقرأنا عليه الأسْماء المكتُوبَة على خاتمِ سليمان بن داود عليهما السلام . فإنّ المولُود إذا وُلِدَ عندنا صنَعْنا به ما ذكَرْتُه لك، فلا تخَفْ عليه من الغرق أو الاخْتِناق إذا نَزلَ فى أىّ بحرٍ من البحار .

وفتح صالحٌ قِراباً من الجِلْدِ أتى به معَه، ونثَر ما فيه أمامَ الملك فتَساقَط منْه عقودٌ منظومةٌ ومنثُورة من مختلِف أنواعِ الجواهِرِ واليواقِيت والزمرد، بينها عددٌ كبير من الجواهر فى حَجْمٍ يساوى حجْم بيضةِ النّعام، تَنْبعِثُ منها أشعةٌ ذاتُ انعِكاسات شديدةٍ، لبَرِيقها نورٌ أشدُّ من نُور الشمس، وأبهى من ضَوءِ القمر .

وقال للملك : يا ملكَ الزمان، هذه الجواهرُ واليواقيتُ هديةٌ منّى إليك، وبعد كلّ حين سنَأْتيك بِمِثْلها إن شاء الله، فإنّ هذه الجواهرَ عندنا فى البَحْر أكثر من الحَصَى فى البر . ونحن نُميّزُ بين جيِّدِها ورَديئها، ونعرف جميعَ مواضعها .

ونظر الملك إلى الجَواهِرِ وقد زَاغَ بصرُه ، وحارَ عقلُه ، وقال لأخي زوجته :

والله إنّ جوهرةً واحدةً من هذه الجواهرِ تعادِلُ مُلْكي كله .

ثم أخذ يَشكُره على هديّتِه العظيمة القيّمة التي لا يَستطيعُ ملك من ملوك البر أنْ يقدم شيئاً منها .

والتفتَ الملك إلى زَوجتِهِ وقال لها : يا جلنار ؛ إنّي في شِدّةِ الخجلِ من أخيك ، فقد أهدَى إليّ هديةً ثمينةً يعجِز عن إهداء مثْلِها أهلُ الأرض جميعاً ، ولو كان بعضُهم لبعضٍ ظهيراً .

فكررت جلنار الشكْرَ لأخيها ، الذي قال :

يا ملك الزمان ، إن لك علينا حَقًّا قد سبق ، وشكرُنا لك دَيْن قد وجب ، فقد أحسَنْتَ إلى أُختِي وأكرمتَها ، واحتَفيْتَ بنا فأسعَدْتَنا ، فلو وقَفْنا أنفُسَنا على خِدْمتِك طِيلَة عمرِنا ما وَفّينا لك حَقّك ، ولا رَدَدْنا لك جميلك .

فشكر له الملك ذلك .

وأقام صالحٌ وأهلُه عند أخته نحوَ أربعين يوماً ، ثم تأهّبُوا للعَوْدة ، فودّعَهم الملك وزوْجتُه ، وطلبا منهم أن يَعُودوا لزيارتهم في أوْقاتٍ مُتقاربة حتى لا يستَوْحِشُوا لطول غيابِهم ؛ فوعدوهم بذلك .

(٣)

وَفَى أهلُ جلنار بِعهودهم ، فظلُّوا يأتُون إليها بين حِين وحِين، ويُقيمون معها هى وزوجها وولدها أيّاماً ، ثم يعودُون إلى ديارِهم ، فيُقيمون بها زمَناً . وهكذا أيامهُنا وأيامهُناك ؛ وظَلُّوا على ذلك زماناً . والصغيرُ « بدر باسم » ينمُو ويكبَر ويترعْرعُ ، وكلما كبر سناً زاد حسناً وجمالا وشجاعة وكمالا .

فلما بَلغ الخامسةَ عشرةَ من عُمُره السعيد، وهو بين العنايةِ والرعايةِ ، والتعليمِ والتّهذِيب ، والتّدرِيب على الفُروسِيّة والرِّماية ، حتى حَذِق علومَه ونَبَغَ فيها ، وبَرعَ فى الفروسية ، وأجادَ الرّمْىَ بالرُّمح والنّشاب .

لذلك كانَ الملك فرحا به ، فَخُوراً ببُنُوّته ، وكان الشعب يُحبه كل الحب .

وأراد الملك أن يُوَلِّيَه العرش وهو عَلَى قَيد الحياة حتى يَطْمَئِنّ عليه ، ففاتح فى ذلك الكبراء والأمراء ، وأرْباب دَوْلته ، فوافقوه جميعاً على ذلك، وأقسمُوا له بالأقسام المغلَّظَة ، والأيْمان الوَثيقة ، أنهم يُحبون أن يجعلوهُ مَلِكا عليهم فى حَياةِ أبيه ، ومِنْ بعده .

فاطمأنَّ لذلك الملك ، وهدأتْ نفسه .

وذات يوم شَرَع فى إقامة حَفَلات التّتويج ، وبدأتْ بأنْ رَكب الملكُ وولدُه ، وأكابرُ رجال دولته ، وجمعٌ كثير من أهْله ، وجَالُوا فى أرجاء المدينة ، ثم كَرُّوا عائِدين إلى القَصر ؛ فلما أشرفوا على القصر ، ترجّلَ

المِلك ، وتقدّم لخِدْمةِ وَلَدِه ، مَثَلُهُ مَثَلُ سائرِ الأُمَراء ، إلى أنْ وصَلوا إلى أبواب القَصْرِ . فترجّل بدر باسم ، ثم تقدّم أبوه ، وأخذَهُ بين ذِرَاعيه ، واحتضَنَه وقبّله ، وأعلَن تَنازُلَه عن المُلْكِ ، وبايَعه على مَرأى ومَشْهَدٍ من كِبار رجالِ دَوْلتِه ، وكذلك بايَعه الأُمراء ، ثم ساروا يَحُفُّون به ، وأجْلسوه على سريرِ المُلكِ ، وأعْلِنَ فى أنحاء المملكةِ تنازلُ الملك لابنه « بدر باسم » ، ومبايعتُه إياه ، ثم مبايعةُ الأمراء والكبراء والأشراف ورجال الدّوْلة الرّسْميين ، وأقبلت الوفُودُ على القصرِ لتهنئةِ المِلكَيْن : الملك الأب ، والملك الابن ؛ وحكم « بدر باسم » ذلك اليومَ بين الناسِ إلى الظُّهرِ ، ثم نهضَ فدخل على أُمّه وعلى رَأْسه تاجُ الملك ، فنهضت إليه ، فقبّلتْه وهَنَّأَتْه بتقليده زمامَ السلطةِ ، ودَعتْ له أنْ يحفظهُ الله ويحفظَ والدَه ، وينصرَهما على أعدائهما ، ويُهيِّئَ لهما زمَنًا سعيدًا ، وعمرًا مَديدًا ، وشَعْبًا مُطيعًا ، وأمْنًا وسلامًا ، ورغَدًا ورَخاء .

وظلّ بدر باسم يَقومُ بأعباء الحكْمِ ، ويَضْطَلع بمهامّه ، فيَفْصِلُ بين الظّالم والمظلوم ، ويُوَلّى ويَعْزِل بالعَدلِ والحِكْمةِ ، ويَطوفُ بالبُلدان والأقاليم الداخلة فى مُلكه ، يُنادى بالأمان والاطمِئنان ، يُعطى المِسْكين ، ولا يَقهرُ اليَتيم ، ويُطْعِمُ الجائعَ ، ويَكْسو العُريان ، ويُعالجُ المريض ، ويَقضِى بين المُتَخاصِمين ، ويُفرِّجُ كَرْبَ المكرُوب ، ويُزِيلُ نَكبَةَ المنكُوب ، ويخفّفُ لَوْعةَ المحزُون .

تعلّق الناسُ به ، ومالوا إليه . وأحبّوه لتواضُعهِ وبِرّه ، وانتشار عدْلِه

وحَزْمه ، فاطمأنَّت قُلوبُهم علىٰ أموالِهم ، وأرواحِهم وأعراضِهم فى ظِلِّ ذلك المذل الوارف .

وكان يَخرجُ أحيانًا للصيْدِ والقَنَص فى البَرارى والقِفار ، وأحيانًا لِلَعِبِ السلاح فى المَيْدان ، فيصُول فيه ويجُول مع مُلاعبِيه من الأُمراء والكُبراء .

مضىَ على ذلك حولٌ كاملٌ ، وكلما مَضت الأيّام زاد تعَلُّقُ شَعبِه به ، وعظُمتْ محبَّتُه له . لأنه وجَدَ فيه العادِلَ الأمين ، والصَّالحَ النَّبِيل .

أصابَ الملكَ شهرمان مرضٌ خطيرٌ ، ثم ألَحَّتْ عليه العِلّةُ ، وأدركَ ألّا نجاةَ منها . فأحضَر ابنَه وأوصاه خيرًا برعِيّته ، كما أوصاهُ بوالدته ، وبسائرِ أربابِ دَوْلته ، ثم طلَب كبارَ رجالِ الدَّوْلة ، فمَثَلوا بينَ يَدَيْه ، فاستَوْثقَ منهم بالأيمان المؤكَّدة ، على طاعةِ ولَدِه . فأقسَمُوا له مؤكِّدين إخلاصَهم وولاءَهم .

وما مضتْ على ذلك أيامٌ ، حتى توفّاه اللهُ إلى رحمَتِه ، فَحزِنَ عَليْه ولدُه بدر باسم حُزنًا شَديدا ، وجَزِعَ لفقْدِ هذا الأبِ البارِّ الذِى ظلَّ يَحبُوه بحبِّه ، ونُصحِه ، وإرشادِه ، حتى لفظَ آخِر نفسٍ من أنْفاسه .

أما زوجتُه جلنار ، فإنَّ حزْنَها عليه كان أعمقَ حزنٍ حزنَتْه زوجةٌ على زوجها .

وأما الشَّعبُ فقد أحسَّ أنَّ خسارةً عظيمة قد حلَّتْ به ، ولكنه

تسلّى بأنّ الفقيد قد أنجبَ لهم مِنْ عُنصُره النَّقِيّ الطاهر ، بَدِيلا منه ، يَسيرُ على خُطّته ، وينهج نَهْجَه .

واستمرّت الوُفودُ تأتِي إلى القصرِ لتَعْزِيَةِ الملك بدر باسم فى وفاةِ أبيه شهرمان وحضرَ أهلُ جلنار كذلك ، وواسَوْها فى وفاةِ زوْجِها ، وقالوا لها :

يا جلنار ، إنْ كان زوجُك الملكُ ماتَ ، فقد تركَ لك خيْرَ خَلَفٍ فى شَخْص ولدكِ الذكىّ العاقِل الناصِح ، ومَنْ خلفَ مثل ابنك بدر باسم لا يَموتُ .

وشَقّ على حاشيةِ الملك بدر باسم ما أصبحَ عليه الملك من حُزنٍ مُقيم ، وما صارَ إليه من الاضمحْلال والذبولِ ، والانصراف عن تَدْبيرِ شئون المَملَكةِ .

فجمَعُوا جماعةً منهم ، وتوجّهوا إليه ، وأخَذوا يُسدُون إليه النُّصحَ بترك الحزْن ، والتّشاغُل عنه بأمُور الدولة ومَهامّها ، فلعلّ اللهَ يُذْهِبُ عنه ما يحسُّه من لواعجِه بفقد والده .

وما زالوا به يلاطِفُونه ويواسُونه ، ويضربون له الأمثالَ والمواعِظَ الحاثّةَ على تركِ الحزْن ، والاستِسْلام لِأمْرِ الله .

أثّرت فيه نصائحهُم ، وحلّتْ مواعظُهم من قلبه محلاً مكيناً ، ونهض معَهم ، وباشر شئون مُلْكه ، وصَرّف أمور دولتِه على عادَتِه .

(٤)

مرّت الأيام والسّنون ، وبدر باسم يحكُمُ بين رعيته بالعدل .
وذاتَ يوم أتَى خالُه صالح لزيارةِ أُخته ، فدخل عَليها ، وكانت جالسةً معَ ولدها ، الذى كانَ متكئًا بجانبها ، يطلبُ قسطًا من الراحةِ ، بعد أنْ قضى يومَه يُصرّف بعضَ شئون الدولةِ الهامةِ ، فغَشِيَهُ شِبه سِنَةٍ من النوم .

واتخذ صالحُ مجلسَه بجانبِ أختِه . وبعد أنْ سألتْه عن حالِه وحالِ أهْلها أخذا يتَحدّثانِ فى أحاديثَ مختَلفة ، من هُنا وهناك ، والحديثُ ذو شُجُون .

ثم جرّهما الحديثُ إلى بدر باسم ، ومهامّه ومَشاغِله ، والمسئوليّة الجسيمة الملْقَاة على عاتقه .

فقال صالح : وددت يا أُختى لو تختْارِين له زوجةً كريمةً ، جميلة ، نسيبَة وسيمةً ، تُؤانسه ، وتُسَرّى عنه ، وتساعدُه على تحمل أعباء الملك .

فقالت أُخته : صدقتَ يا أخى ، فما عَدَوْتَ ما يدُور بفكرِى ، فإنى أَوَدّ أن أختار له زوجةً تُعادِلُه جمالاً وحسَبًا ونسَبًا .

وكان بدر باسم قد انتَبه من غَفْوتِه ، فلما سمِع أُمّه وخاله يتكلمان عنه ، تظاهر بأنه لا يَزال نائمًا . فسمِع خالَه يقول :

إنى أُريد أنْ تُزَوّجيه ملِكةً من ملِكات البَحر ، تكونُ أهْلا له .

فقالت جلنار: اذكرْهُنّ لِي، لنَستَعرِض أسماءهن واحدة واحدة، وأيّتُهن تكون أليقَ به نختارُها له.

فأخذ صالح يذكُرُ لها أسماء مِلكاتِ البَحر، وبنات مُلوكه، ويعدّدُ لها صفاتِهن، وهي تَستَمِع له، ثم تَرفضُ قائلة: هذه لا تَصلُح زوجة لابني.

أو: لا أرضَى بهذه زوجةً له.

أو: هذه لا تُنَاسِبُه.

وكانت تُبدِي الأسبابَ التي تَبْنى عليها حُكمها بالرّفض، من كِبَرٍ في السّنّ، أو شذوذٍ في الأخلاقِ والطِّباع، أو غير ذلك من الأسباب.

فقال لها أخوها: لقد ذكَرْتُ لكِ يا أختي جميعَ من أعرِف من بنات ملوكِ البَحر، فما أعجَبَتْكِ واحدةٌ منهن، ولكن....

وسكتَ قليلاً، ثم قال لأختِه هامِساً: هل تَرَيْنَ بدر باسم مُستَغرِقاً في النوم؟ فوضعَتْ جلنار يدَها على جبهةِ ولدِها بِلُطفٍ، فلما لَمْ يُبْدِ حركةً قالت لأخيها: نعم إنّه نائِم مستغرِقٌ في النوم؛ ولكنْ، لِمَ هذا السُّؤالُ يا أخِي؟ قال: لقد تذكرتُ بنْتاً من بناتِ البحر تصلُح لابنِك، وخَشِيتُ أن يكُون مستيقِظاً فيسمعَ ما سَأصِفُها لكِ به، فيتَعلّق بها قلبُه، وربّما لا يُمكِنُنَا الوصول إليها، ثم ضَحِك، وقال:

فالأُذن تَعشَق قبلَ العَيْن أحيانَا.

فقالت جلنار: مَن هذه البنْت؟ وما اسْمُها؟، فأنا أعرِف بناتِ ملوك البحر وغيرَهم، فإن رأيتُها أهْلاً لولدي، سعيتُ إلى خِطبتها، ولو تكبّدْتُ

فى مَسعاى هذا كلَّ المَشاق ، أو أنفقتُ فى سبيله كل ما تملكُ يَدى .

قال صالح : هى الملكةُ جوهرة بنتُ الملك السَّمَنْدَل ، فهى مِثلُ بدر باسم حسناً وجمالا وبهاء ، إلاّ أنّها هَيْفاء غَيْداء ؛ وليس أحدٌ أخفّ منها رُوحاً ، ولا أحْلى شمائِل ، ولا أرقّ طِباعاً ، ولا أسْمى خُلقاً ؛ فهى رَوْح وَرَيْحان ، وجَنّة نَعِيم ؛ مشرقةُ الوجْه ، ممْشُوقةُ القدّ ، فَرْعاء ، غضيرة نَضيرة ، غَضة بَضّة ، باسمة ناعمة ، واضحةُ الجبين كأنّه الجوهر . إن تلفتَتْ تخجل المها والغِزْلان ، وإن تَجَلّتْ يَغَارُ غصن البان ، وإن أسفرتْ فكأن الشمس قد أشرقت ، أو كأنّ القمر قد بزَغ ، يبهر العينَ حسنُها إذا ما نظَرت ، ويسبى العقلَ دلالُها إذا ما خَطَرت .

فقالت جلنار : إنكَ على حَقّ يا أخى ، فقد رأيتُها وهى صغيرةٌ ، وقد كانت كما وصفتَها ، فما بالُها بعد أن شبّتْ وازْدَهرت ؟! نعم ، إنه لا يصلُح لولدى غيرُها .

فقال أخوها : وهذا ما أُريد ، ولكنْ ؛ يا أختاه : دُون ذلك عقَباتٌ وعقَباتٌ ، فأبُوها : لَيْس فى ملوكِ البَحر أقوى منه قوة ، ولا أغلَظ قلباً ، ولا أشْرس خُلُقاً ، ولا أجفَى طبعاً ؛ فلا تُخْبرى ولدكِ بحديثِ هذه الفتاة حتى نَخطُبَها له من أبِيها ، فإن أجابنا نَعِمَ بها ، وإن ردّنا خَطبْنا له غَيْرَها .

قالت : نَعمْ إنكَ لَعلَى صواب .

ثم نهضَ كلٌ منهما إلى مَرقَدِه .

أما بدر باسم فما نعم جَسَدُه برُقادٍ ، وما طافَ بجَفْنيه نُعاس ، وما استقر جَنْبُه على فِراشٍ .

فقد سمعَ كلَّ حديثِهما وَوَعاه .

ووقع فى قَلْبه ما خَشِيَاه ، فأحبَّ جَوهرةَ ، بنتَ الملك السمندل ، وعلِق قلبُه بها على السّماع .

وفى الصّباح أبْدى صالح رغبَةً فى العودة إلى أهله ، فطلب منه بدر باسم أن يمكثَ معهم يوماً آخر ، فاستجابَ له .

وفى صَباح ذلك اليوم قال بدر باسم لخاله صالح : هيَّا بنا ياخَالى نتَريَّض قليلا فى بُستانِ القصر ؛ فخرجَ معه خالُه ، وتجوّلَا فى البستان ، يتريّضانِ ، ويمتّعانِ الطرْفَ بوُرودِه وأزهارِه ، حتى انتَهيَا إلى شجرةٍ ضخمةٍ كبيرةٍ متشابكةِ الأغصان ، ملتفّة الأفْنان ، نضيرةِ الأزهار ، وارفةِ الظل ؛ فجلسا يتفيّآنِ ظِلَّها ، وينْتَعِشَان بطيبِ الهواء ، وعليلِ النسيم .

أسند بدر باسم ظهرَه إلى جِذْعِها ، وأغْمضَ جفْنَيْه ، وكادَ يَطوفُ بعيْنَيْه طيفُ الكَرَى ، ولكنه تذكر حديثَ خالِه عن بنْتِ الملك السمندل ، فانتفضَ وتنهّد ، وبدَا عليهِ أن همَّا يخْتَلِجُ بيْن جَنْبَيْه ، وأنَّ شيئاً خطيراً يُنازِعُه مرحَه وسرورَه ، فيتَمَلْمَلُ ، وكأنّه يَهُمُّ أن يتكلّم ، ولكن لسانَه لا يطاوِعُه ، وقلبه لا يَسْتَسْلِم له .

أدركَ خاله ما هوَ عليه من قلَقٍ ، وما يُساورُه من أمورٍ خَفِيةٍ

قاسية ، يحاولُ أن يُخفيها فلا تَخْفَى ، فارْتَاعَ ، وضربَ كفاً بكفٍ ، وقال : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ! ما بِك يا ولَدِى ؟ فتَنَهَّدَ بدر باسم وقال :

الأُذُن تعشق قَبْل العَيْن أحْيانَاً !

فاستعجب صالح ، وقال له : هل سَمِعتَ يا ولدى حَديثى مع أمِّك ليلةَ أمس ؟! ، قال بدر باسم : نَعَمْ يا خَالى ، وسمِعْتُ ما وصفْتَ به الملكة جوهرة ، بنت الملك السَمَنْدل ، فأحبَبْتُها من وَصفِك ، وعشقَتْها أُذنى قبلَ أن تعشَقَها عَيْنِى ، فلا قُدْرةَ لى على سُلُوِّها ، ولا صَبرَ لى عَنْها .

فقال صالح : إذنْ هيّا بِنَا إلى أمِّك ، لنُعلِمها رغْبتَك ، ونستأْذِنها فى السَّفر لخِطْبَةِ بنت الملك السمندل .

فقال بدر باسم : يا خالِى ؛ إنَّا لو عُدْنا إلى أُمِّى لاستِئْذانِها فى سَفَرى معكَ لرفَضَتْ . فقال : وما العَملُ ؟ ، فأنا لا أستَطِيعُ أن آخذَكَ مَعِى من غير استِشارَتِها حتى لا تغضَبَ علىّ ، ولا أُحبُّ أن تَتَّهمَنى بأنِّى السببُ فى وقوعِ الفُرقَة بينَكما ، فقد كنتُ السَّبَبَ فى وقوعِ الفرقةِ بيننا وبينَها من قَبْل .

قال بدر باسم : أنا أعلَمُ أنها لا تُوافِقُ على سَفَرِى أبَداً .

فأجابه خاله : وإن الحقّ معَها ، فكيفَ تتْرُكُ مَمْلكتَك ؟ ومن يَسُوسُها فى غِيابِك ؟ فربَّما يفسد عليكَ أمْرُها ، ويخرجُ المُلْك من يَدِكَ .

فقال بدر باسم فى إصْرارٍ : لا بُدَّ من ذَهابى معكَ من غير أن أُخبِرها ، وسأعُود سريعًا إليها .

فأخذ خاله يَشرح له مغبّةَ فَعْلَته ، ويبيّن له خطُورَتَها ، وما يترتَّبُ عليها ؛ وبدر باسم كأنَّه آلة صمّاء ، لا يَعِى ولا يُدرِكُ من قَوله شَيْئًا .

ولما أعْيَت الحيلُ الخالَ فى إقْناع ابنِ أُخْته ، أَخْلَدَ إلى الصَّمتِ ، فلم يَملِكْ بدر باسم نفسَه ، وظهرَ عليه الألمُ والقلقُ ، وأخذ يَتوسَّل إلى خالِه ، ويستَعْطِفُه فى أنْ يأخُذَه معه ، حتى يَخْطُب مَن أحبَّها ، ثم يَعود سريعًا إلى أمِّه ومَمْلكَتِه .

ولم يجِدْ صالح بُدًّا من رُكوبِ هـذا الخطَرِ ، فخلع من إصبَعه خاتمًا نُقِشَ عليه بعضُ أسماء الله سبحانه وتعالى ، وقدّمَه لبدر باسم ، وقال له :

البَسْ هذا الخاتَم فى إصْبَعِكَ ، تأْمَنْ البَحر ودوابَّه ودُوَارَه .

فلبِسَ بدر باسم الخاتَم فى إصبعه ، وسار معَ خاله إلى البَحْر وغَطَسا فيه .

(٥)

وما زال الخالُ وابنُ الأُخْتِ سائرَيْن تحتَ الماء ، حتى وصَلا إلى قَصرِ صالح ، ودخلاه ؛ فوجَد بدر باسم جَدّته جالسةً مع بعضِ أقربائها ، فلما رأتْه نهضَتْ إليه ، وهى فى شِدّة الفَرح ، وعانقَتْه ، وَأَوْسَعَتْه لثمًا وتَقْبيلا ، وقالت له :

لقد حلّتْ بنا السعادةُ يا ولدى ، كيفَ خلّفْتَ أمّك جلنار ؟

فأجابَ : هى بخيرٍ وعافيةٍ ، تُهدِى سلامَها إليك ، وإلى بناتِ عمها .

ثم اختلَى صالح بأمّه وقصّ عليْها قصةَ بدر باسم ، وذكرَ لها رغْبَتَه الشديدَةَ فى خِطبةِ بنت الملك السمندل ، بعد أن سمِعَ بصفاتِها وهو يَصِفُها لأُختِه . فانزعَجتْ أمه لذلك ، واستَشاطتْ غضَباً ، وصكّت وجْهَها ، وقالت له : يا ولَدِى ، لقد أخطأْتَ فى ذِكر المِلكَةَ جوهرة أمامَ ابنِ أُخْتِك . فأنْتَ تعلَم أنّ والدَهَا جبّارٌ عنِيدٌ ، أحمقُ ، فيه شدةٌ وشراسَةٌ ، وهُو بخيلٌ بابنَتِه ، شحيحٌ بها على كل مَنْ يَخطُبُها ؛ فكم رَدّ من خُطّابٍ أَتوْا لخِطبَتِها منه ، وكم أرْجعَ هَدَايا من أولاد الملوك جلبُوها له استِدْراراً لعَطفِه ، واستِمالةً لقَلْبِه ، وكان يقولُ لهم جميعاً : أنتم لَستُم أكْفاء لابنَتِى ؛ فما بالُنا نَخْطُبها منه فيردّنا كما ردّ غيرَنا ، وما ينالُنا غير الخزْى والعارِ ، والذّل والانكسارِ ؟!

أليسَ لنا فِيمنْ تقدّمُونا عِبْرة ، ومنهم مَنْ هو أشدّ منا قُوة ، وأعزّ نَفَرا ؟!

فقال لها ابنها : يا أمّى ، لقد نَفذَ السَهْمُ ، ولا بُدّ أن تَتقدّم الآنَ لخِطبَتِها ، فإن بدر باسم لنْ ينثَنِي عن إرادتِه ، وهو أجملُ من جوهرة ، وأكملُ منها ؛ وهو الآنَ مِلك العَجَم كلهم . فإن احتَجّ علينا والدُها بضخامَةِ مُلْكه ، فابن أختى ملكٌ ابن مِلك ، ومملكتُه أوسعُ أرْضا ، وأكثرُ جُنوداً وأعْوانا ، وأشهر ذِكرا ، وأكثرُ غَلة ، وأخصَبَ بلادا ؛

وسأشرع فى إعدادِ هدية غاليةٍ ثمينةٍ تليق بمقام مُهديها، فأحمِلُها إليه، فقد عزَمتُ أن أساعدَه بمالِي وجاهى، وبكل ما أملِكُ، حتى أُنيلَه بُغيتَه، وقد كنتُ سبباً فى وُقوعِه فى حبِّها، فلا بُدّ أنْ أكون سبباً فى زَواجه منها.

قالت أمه: سر يا وَلدى على بَركةِ الله، وافعلْ ما تُريد، وإياكَ أن تُغلِظَ عليه فى القَوْل إذا خاطَبْتَه، فإنّكَ تَعرِفُ حماقتَه ونَزَقَه.

فقال لها: سأفعلُ إنْ شاءَ الله.

أعدّ صالح العُدّة للذّهابِ لخِطْبةِ جوهرة بنتِ المَلِك السمندل.

فأحضر هديةً نفيسةً ثمينة من الجواهر، والأحْجار الكريمة، وحَمَّلَها غلمانَه، وسار هُو وابن أُخْتِه بدر باسم قاصدين قصرَ الملك السمندل، فلما كان بالقربِ منه طلبَ صالحٌ من ابنِ أُختِه أن ينتَظِره فى مكانٍ قريبٍ من القصر.

استأذن صالحٌ فى الدُّخولِ على المِلك، فأذِنَ له، فدخَل، وسلّم وقبّلَ الأرْض بَيْن يديْه، فنهضَ الملك، وأخذَ بيدِه، وأجْلَسه بجانِبه، وبالَغ فى تكريمه، والترحيبِ به، وقال له: لقد سَرّنى قدُومُك يا صالح، فقد مَضتْ مدةٌ طويلة لم نَرَكَ فيها؛ أخبرنى: ما حاجتُك التى أتتْ بك إلينا على غيرِ عادة؟

فنثرصالح الهَدايا بين يَدَي المَلِك، وقال:

يا ملك الزمان : اقبَل هَدِيّتى متفضّلا علَىّ ، مُحْسِنا إلىّ ، فإنّ فى قَبُولك إياها إسعاداً لى ولِأُسْرَتى .

فقال الملك : ولأىّ مناسبةٍ أهدَيْتَ إلىّ هذه الهديةَ يا ابن المُلوك السابقين ؟ إنها مقبولةٌ منكَ ، وإن كان لكَ حاجةٌ فاذْكرْها ، فهى مَقْضِيّةٌ لا محالة .

فقال صالح : يا ملكَ الزمانِ ؛ إن حاجَتى مِلْك يَدِك ، فإن تفضّلْتَ بقضائِها تفضّلْتَ مَشكُورا .

فقال الملك : وضِّحْ غرضَك ، وأبِنْ حاجتك .

فقال صالح : يا ملك الزمان ؛ لقد جئتُ إليك طامِعاً فى كرمِك وبرِّك ، آملا فى تقديرِك ورضَاك : جئتُ أطْلبُ يَدَ ابنتِك الكريمةِ الملكةِ جوهرة . فما سمع الملكُ قول صالح ، حتى ضَحِكَ سخريةً واستهزاء ؛ وقال :

يا صالحُ ؛ كنتُ أحسبكَ رجلاً عاقِلاً ، وشابًا فاضلا ، لا تسعَى إلا بعْد تَدْبير ، ولا تتكلّمُ إلا بعد تفْكير ، ما أصابك حتى دعَاكَ لأنْ تطلُبَ مثل هذا الطلب البعيد المَنال ، فتأتى إلىّ ، وتطلُب يد ابنَتِي ؟ أبلغَ من قَدْرِك أن تَتطاول وتتشَامخ وتتَعالى ، وتمُدّ بصرَك إلينا ، وتطلُب يد ابنتى ؟!

فقال صالح : أيها الملك ؛ إننى لَمْ أخطُبْها لنَفْسى ، ولو خطبْتُها لكنتُ كُفْئًا لها ، بل أكثرُ من كفء لها ، فأنتَ تعلَمُ أننِي ابنُ ملِك ،

وجوهرة بنتُ ملك ، وأبناء الملوك أكفاء لبنات الملوك ، ولكنني أخطبُها للملك بدر باسم، صاحب بلاد العجم، وابن الملك شهرمان العظيم؛ وهو شجاعٌ مقدامٌ ، وفارسٌ مغوار ؛ صاحبُ ملكٍ طويلٍ عريض، ورثه كابرًا عن كابرٍ؛ فهو حَسيبٌ نسيبٌ ، فإن أجبْتَني إلى ما سألتُكَ تكنْ قد زوجْتَ كُفئًا لِكُفء ، ونِدًّا لِنِدٍّ ، فما من شَخْصٍ يليقُ لابنَتِك أكثر من ابن أُخْتى ؛ ولا أحق بها منه ، والملكةُ جوهرةُ لا بد لها من الزّواج يومًا ، وليسَ من الصوابِ أن تَظَل هكذا ، ترفُضُ كل من يَتقدّمُ لِخطْبتِها ، فإن لها شبابًا ، وإن فِيها فتنَةً وجمالا .

وما انتهى صالحٌ من كلامِه ، حتى كانَ الملك قد غَلى مرجَلُ غضَبه ، فاحمرّت عيْناه ، وانتفَختْ أوداجُه ، وفَحّ صدرُه ، وارتعشَتْ أطرافُه ، فصاح فى صالح صَيْحةَ حُمق :

يا أحقَر الرجالِ ، أمِثْلُكَ يخاطِبُنى بمثل هذا الخطاب !! ويدورُ على لسانه ذِكْرُ ابنتى . وتقول : ابنُ أُختِك جلنار كُفء لها ! مَنْ أنتَ ؟!! ومَنْ أُختُك ؟!! ومَن ابنُها ؟!! ومَن أبُوه ؟!! ، فأيْن أنتُم منها ؟!!

ثم صاح على غِلمانه ، وكأنّ الزبد يَتناثَر من فمه قائلاً :

يا غِلمان ؛ خذُوا رأسَ هذا اللّئيم الحقير ، الذى اجترَأ علينا ، وزعَم أن أسْرته كفء لأسْرتنا .

فأسرع الغلمان يجرُون خلفَ صالح الذى كانَ قد أطْلقَ ساقيَه للرّيح هاربًا ، وقد شهروا سُيُوفَهم يَبْغُون قتله .

وكادوا يُدرِكُونه وهُو يهُمّ بالخروج من بابِ القصر، لولا أنّ شِرْذِمةً من الفرسانِ أحاطَتْ بِهم ومَنَعَتْهم أنْ يُلْحِقُوا به ضرراً .

عجب الغلمانُ وتساءلُوا : مَنْ هؤلاء الفرسان ؟ ! ومَن يكُونون ؟ !

فكان الجواب السريع أنه كانت الساحة الفسيحة الواقعة أمام القصر تمِجُ بجيشٍ عرَمْرَمٍ من الفرسانِ المدَجَّجين بالسِّلاح ، وما كادُوا يَلمَحُون ما يجرِي لصالح حتى هَجَمُوا على القَصر ، فشَتَّتُوا الغِلْمان ، وقاتَلُوا الحرَس ، واندفَعُوا داخلين إلى مَجْلِس الملِك الذى كان لا يزالُ جالساً يكادُ يَتَميَّزُ من الغَيْظِ .

وفى أسرعَ من لمح البَصر قبضُوا على الملك من غيرِ أن يُدرِكَ حقيقةَ ما حدَث ، ومن غيرِ أن يستَطيع حرَسُه حمايتَه ، والدفاعَ عنه .

وذلك أنّ أمّ صالح كانَتْ تَتوجّسُ خيفةً على ابنها من حماقةِ الملك السمندل ، وغلظَتِه ، وبطشِه ، فحدَّثَها قلبُها بما سوفَ يَحْدثُ ، فأرسلتْ إلى أقرِبائها وعَشيرَتِها تستدْعِيهم لنَجْدةِ ابنِها إذا ما استَدْعَى الأمرُ نَجْدَة .

فجمعوا جُموعَهم ، وركِبَ فرسانُهم ، وذهبوا إلى قصرِ الملك . وما كادُوا يصلون إليه ، ويتَسقَّطُون الأخبارَ ، حتى واجههُم ما جاءوا من أجْلِه ، فأبْصَروا صالحاً يخرُجُ هارباً يلتَمِس النجاةَ ، ومنْ ورائِه الغلمانُ يبغون اللّحاقَ به ، فما هى إلا غمضةُ عَيْنٍ وانتباهَتِها حتى خلّصُوا صالحاً ، وأخذوا ينْتقِمون له بما فَعَلوا من تَشْتِيتِهم للحَرَسِ ، الذين صارَ كلٌّ منهم يبْحَثُ عَنْ ملجأٍ يلجأُ إليه ؛ وكذلك فعَلتْ جوهرة ، فإنها قصدتْ

إلى جزيرةٍ فى وَسَطِ البحرِ ، وصعدتْ إلى شجرةٍ عاليةٍ بها ، واختبأتْ بين أغْصانِها .

ظل الملكُ بدر باسم جالساً حيث تركهُ خالُه صالح ينتظر أوبته ، وبينما هو كذلك شعرَ بهرج ومرج ، ثم أبصر عدداً من غلمانِ الملك السمندل وجنودِهِ ، يجرُون مسرِعين ، وكأنّ وراءهم من يطاردُهم . فسألهُم عما حَدث ، فأخبروه أن قتالاً شديداً دائرٌ بين حرسِ الملك ، وجيشٍ آخر كبير ، قدِم عليهم ، ولا يدرون من أين جاء ، ويظنُون أنه جَيْشٌ تابعٌ لشَخص يُدعى صالحاً جاء لمقابلةِ الملك .

أدركَ بدر باسم ما حدَث ، وعرفَ أنه لو شَكّ أحدٌ فيه فسيعرِفون أنه السَّبَبُ الأول فى نُشُوب هذه المعركةِ ، ويحاولون أن ينْتَقموا منه ، ورأى أنه لا حِيلةَ له إلا الهربَ بنفسه لينجوَ بحياتِهِ الآن حتى يجدَ متّسَعاً من الوقتِ يدبّرُ فيه أمرَه ، ولكنّه لا يَعرفُ أيْنَ خالُه صالح الآن ؟ وإن كانَ قد رَجّح أنه نَجا ، لِما شاهَد من خَوْفِ الغلمان والحرَسِ الذى يحاربُ معهم ، وما وقَعَ فى صفُوفِهم من الاضْطِرابِ ، وما شاعَ بينهم من الذُّعْر والخوْفِ ؛ الأمر الذى يَدُل على أنّ جندَ خالِه أكثرُ عددا ، وأكثر سلاحا ، وعلى أن النّصرَ حالفَهم .

ولم يدر بدر باسم أيْنَ يَذْهب ؟ ولا كَيْف يختَبِئُ إلى حين ، فَطَفا على سطح الماء ، فوجد جزيرةً ، فصعد إليها ، وانطرحَ تحت إحدى

أشجارِها العالية ، وأخذ يتدبّر ما حَدث ، ويستلهم فِكرَه ، ما عَسَى أنْ يَفعَل ؟

وبينما هو كذلك إذا بعينيه تَلْتَقِيان بعَيْنَيْن جميلتَيْن نجلاوَيْن تُطلان عَليْه من بين أغصان الشّجرة التى رقَد تحتَها .

وهكذا ساقَتْه المقاديرُ إلى جوهرةِ بنت الملك السمندل ، التى يحمل فى سبيلها مشاقّ النفسِ والفِكْر والجسدِ .

فترك أُمّه من غير وَدَاع ، وترك مَمْلكته من غير راعٍ ، مفرّطاً من أجْلِها فى واجباته ، وهجر من أجلها عرشاً يُخْشى عليه ، غير مُهتَم بذلك ، ولا مكترِثٍ له ، فإن كلّ شىء يهُون فى سبيلِ جَوهرة .

(٦)

نظر بدر باسم فوجد هاتين العينَيْن لصبيّةٍ بارعةِ الحسنِ ، ذاتِ جمالٍ باهرٍ، يَحارُ العقلُ فى تعدادِ محاسنه ، جالسة بين أغصانِ الشجرةِ ، وكأنّها إحدى حُور الجنان ، أو مَلاك هبطَ من السماء .

فلم يتمالَك أن صاحَ وقال : سبحان الله الذى جلّتْ قدرتُه ، خلقَ مثل هذا الجمالِ ، وصوّر مثل ذلك الُحسنِ ، وقفزتْ إلى ذهْنِه صورةُ جوهرة التى كوّنَها له فِكْره ، وصوّرها له عقلُه حينما سمِع وصفَها ، وهو يتَناومُ ، بين خاله وأمه ، فعشقَتْها أذنُه ، قبل أن يعشقَها قلبُه ، وارتحلَ من أجْلها هو وخاله هذه الرحلةَ الشاقّةَ الخطيرة التى ألجأته إلى ذلكَ المأزقِ الذى



جوهرة على الشجرة . وبدر باسم تحتها

هُوَ فيه الآن ، نخفق قلْبُه ، واستعرتْ نارُ الحبٌ بين جَنْبَيْه ، وقال محدِّثًا نفسه : والله إن أصابَ حدسِي ، وصدق قَلْبي ، فلا تكُون هذه إلا جوهرة بنت الملك السمندل ، حبيبة القَلْب ، ومُنْيَة الروح .

وخطر بباله أن يَصعد إليها ، فيختَطِفَها ، ويعودَ بها إلى بلاده ، حيثُ يتزوجها ، ويعيشُ معها ، فنهضَ قائمًا ، ونظر إليْها وهو يقول :

أيتَها الفاتنةُ الحسناء ، والكاعِبُ الهَيْفاء ، من أنتِ ؟ ولماذا أنتِ هنا ؟ وما الذى ألجأكِ إلى التعلُّقِ بفروعِ الشجرة خائفةً ، ساهرةً حالمةً ؟! إنه لأمرٌ عظيم .

فنظرتْ جوهرة إليه منَ أعلى الشجرةِ ، فأعجَبَها جمالُه ، ورشاقَةُ قَوامِهِ ، واعتداله ، فوقعَ من قلبِها موقعًا عظيما لا يَقِلُّ عن موقِعِها من قلبِه ، وأحسَّتْ أن رُوحًا قويًّا يسيْطِرُ عليها ، ويستمْكِنُ من نَفْسِها .

فقالت له : يا هذا ، أنا الملكةُ جوهرة ، بنت الملك السمندل ، جئت إلى هذا المكانِ ، واختبأْتُ فيه هاربةً من جنود صالحٍ التى هجَمتْ على أبى وأُسرتِهِ وطاردَتْ جنودَه ، ولا أَدْرى ما حدَثَ له ؟!

فرِحَ بدر باسم ، وتملكهُ سرور جارِفٌ عند ما تأكّدَ لديه أنّ هذه الجميلةَ البديعة هى حقًا جوهرة التى كانَ يَمَنَّى النفْسَ برؤيتها ، وخِطْبَتِها من أبيها ، وها هى ذِى فى مُتَناوَلِ يده ، وأبُوها أسيرٌ لديهم ، وتعجب من هذا الاتفاقِ الغريب الذى جَمعهما لسببٍ واحد ، ولحكمةِ القدر التى

ساقتهما إلى جزيرةٍ واحدة ، بل إلى شجرةٍ واحدة : هى تعتصم بفروعِها ، وهو يَعْتصِمُ أيضاً بظِلِّها .

فنظرَ إليها وقال : يا سيدَتى ، أتعلمينَ لِمَ كانَتْ هذه الحربُ التى قامتْ بينكم وبين جنودِ صالح ، إنها كانَتْ لأجْلِى ولأجْلِك .

قالت وهى فى دَهشةٍ من حديثِه : وكيفَ ذلك ؟

قال : أنا المَلِك بدر باسم ، صاحبُ أرضِ العجم ، وصالحٌ الذى هُنا حاربَ أباكِ وأسرَه هو خالى ؛ وقد ذَهبَ إلى أبيك يطلبُ يدَكِ لِى منه ، فقد تركت مُلكى سعياً وراء ذلك ، فحصل ما حصل . واجتماعنا الآن من عجائبِ الاتفاق ، وغرائبِ الأمور ؛ فاهْبطى يا سيدَتى ، حتى نذْهبَ معاً إلى قصرِ أبيكِ ، وأطلب من خالِى إطلاقَ سَراحِه ، وأطلب يدَكِ منه .

فما سمعتْ جوهرة حديث بدر باسم حتى اعتمَلَت الأنَفةُ والكِبْرياء فى نفْسِها ، واستعرتْ نارُ السّخْطِ والغضَب بين أضْلاعها ، وامتلأَ قلْبُها بالحقد عليه ، وأخذَتْها العزةُ بالإثم ، وذهبَتْ موجةُ الحُبِّ الشديدة التى عَصفَتْ بقلبها عندَ أوّلِ نظْرةٍ له ؛ إذ كانَ سبباً فى أسْر أبيها ، وتشتت أُسرتِها ، وقَتلِ خدَمِهم ، وجنودِهم ، وزعزعة عَرْشِهم ، ثم هل يَمُنّ عليها الآنَ أنه سيخاطِبُ خالَه فى إطلاقِ سَراحِ أبيها ، ثم يعامِلُها معاملةَ أسيرةٍ ، وهم الذين كانوا أصحابَ السُّلْطةِ والسُّلطان .

وكادت ثَورةُ الغضَب أن تتغلَّبَ عليها ، ولكنها تمالَكَتْ نفسَها ،

وكظَمتْ غيظَها وتغلبَتْ على مابها ، حتى تحتال على النجاةِ منه ، والكيدِ له .

فقالت له : يا سيدى ؛ أأنت حقاً الملك بدر باسم، ابنُ الملكة جلنار ؟

قال : نعم يا سيدَتى .

قالت : أتتحمَّلُ مشاقَّ الحضورِ إلينا ، وتترك أرضَك ومملكتَك من أجلِي ، ويَرُدَّك أبى ؟! إنه قدْ تصرَّفَ تصرفاً خاطِئاً ، أيُريدُ أكثَر منكَ جاهاً ، وأوْسعَ مُلكا ، أم يُريد أجملَ شكلاً ، وأبْهى منظراً ، أمْ يريد ألطف شمائل وأكملَ أخلاقاً ؟! ولكن يا سيِّدى لا تُؤاخِذْ أبى بتَصرفه ، فهو قليلُ الدّربَة ، جاهلُ الدِّرايةِ بمثل هذه الأُمور ؛ فإنك إنْ كنتَ أحبَبْتنى ، فقد صار لكَ عندى أضْعاف ما عندك ، وإنَّ حُبَّك لى ، الذى جعلك تتجشَّمُ مع خالك هذه الصِّعاب — ليس إلا بعض حبى لك .

ولم تكد تنْتَهى من ذلك الكلام حتى أسْرعَتْ هابطةً من فوْق الشجرةِ ، وتقدَّمتْ من بدر باسم ،وألْقتْ بذراعَيْها حولَ عنقه ، وعانقَتْه .

حينئذ أيقَن بدر باسم أنها قد أحبَّته ، ووقعَ من قلبها موقعاً حسناً ، فالتهبَتْ عواطفُه ، وبادلَها العِناق ، وهو يقول :

والله إن خالِي لم يَصفْ لى من محاسنِك إلا بَعضَ ما تتَّصِفين به ، لأنَّ مثلَ هذه المحاسن لا يمكن أنْ يُحيطَ بها وَصْف .

فنظرت إليه جوهرة ، وحَدَّقت فيه ، وتَمتَمتْ بكلامٍ لم يفْهمْه ، واقتَربتْ بوجْهِها من وَجْهِه ، ونَفَخَتْ نفْخَة واحدةً ، وقالت :

اخرج من صُورتك البَشرية هـذه إلى صورةِ طائرٍ جميلٍ ، أبيض الريش ، أحمر الرجلين والمنقار .

و. تمت كلامَها ، حتى انتفَض الملك بدر باسم انتفاضَة شديدةً ، وصار طائراً جميلًا ، بديعَ المنظَر ، أبيض الريش ، أحمر الرجلين والمنقار ، على نَحْو ما طلَبتْ .

نظرتْ جوهرة إلى الطائرِ بدر باسم متَشَفِّيةً ، لأنها نالتْ وطَرهَا منه ، فسَخَتْه طائراً ، ولكنَّها لم يَكفِها ما حَلّ به ، فأخَذتْ تقدَحُ ذهنَها ، وتستَلهِم فِكرَها ، لعله يتفتّق عن حيلةٍ أخرى ، تتم بها شفاءَ غليلها .

وبينما هى تفكرُ لمحتْ شبحاً قادماً من داخِل الجزيرة ، وما إن اقتربَ هذا الشبح منها — حتى تبيّنتْ أنه جارية من جواريها ، تُسمّى مرسينة ، وكانت قد ساقتْها الأقدار، هى الأخرى، إلى هذه الجزيرة، هاربةً من وجه الجُنود الذين هَجمُوا على قصرِ سيّدِها الملك السمندل .

فما رأتْها جوهرة حتى هتَفتْ بها قائلة :

تعالَىْ يا مرسينة ، خذِى هذا الطائِرَ ، واذهبِى به إلى الجزيرة المُقْفِرَةِ التى ليسَ فيها ماءٌ ولا نباتٌ ، واتركيه هناكَ حتى يموتَ جُوعاً وعطَشًا ، فو الله لوْلَا أنّ أبى أسيرٌ عند خَالِه لقَتَلْتُه الآن ، وشَرِبتُ من دمِهِ شربة أشفِى بها نَفسِى .

فقالت الجارية : ولِمَ تريدِين قتلَ هذا الطائِرِ الجميلِ يا سيدتى ؟

فقالت جوهرة : ما هُو بطائرٍ ، وإنما هُو الملك بدر باسم ، المتسبِّبُ

بشُؤمهِ فيما حلّ بنا . فقد أخرجْتُه بسحرِى من صُورتِهِ الأولى إلى هذه الصورة . فخذِيه وافعلى معه ما أمرْتُك به .

فأخذته الجاريةُ ، وذهبَتْ به إلى الجزيرةِ الْمُعطِشَةِ ، وأرادَتْ أن تتركَه بها ، فلم يُطاوعْها قلبُها ؛ وقالت تحدّثُ نفسَها : كيف أتركُ مثل هذا الجمال يموتُ عطشاً ، إنه لا يستحق هذا ، إنها لقسوةٌ ، وإن القلبَ المتحجّرَ الغليظَ يُطيف به طائفٌ من الحنان والعطفِ أحياناً فيرق رقّةَ الماء يخرجُ من الصخر . لن أتركَكَ تموتُ أيها الطائر السجين .

ثم أخذَتْه وذهبتْ إلى جزيرة أُخرى كثيرةِ الأشجارِ والأثمار والأنهار ، وتركَتْه فيها ، وعادَت إلى سيّدتِها ، وقالت لها :

لقد وضَعتُه يا سيدتى فى الجزيرة المعطشة .

ففرحتْ سيدتُها ، وقرّتْ بذلك عيناً ، لأنها استطاعَتْ أن تنتقِمَ لأبيها . وإن كان ذلك الانتقامُ عَلَى حسابِ قَلبِها وعاطِفَتِها .

أما صالح فإنّه بعد أن أسَر الملكَ السمندل بمعاونةِ الفرسانِ الذين أرسلتْهم أمه لنجدَتِهِ ، وقتَلَ خدمَه ، وشَتّتَ جُندَه — دخَلَ القصرَ فى طلبِ الملكة جوهرة ، وبحثَ عنها ، وأطال البحثَ ، فلم يَجِدْها ، فعرفَ أنها فَرّتْ هاربة .

فعاد إلى قَصْرِه ، وسألَ أُمّه عن بدر باسم ، فقالت له :

يا ولدى ؛ ما رأتْه عينى منذ أن غادر تُمانِى معاً ، ألم يَكُنْ معكَ فى أثناء قِتالِكما مع أعوانِ الملك السمندل ؟ .

فقال صالح : لقد تركْتُه قريباً من القصر قبلَ دخولِي على الملك السمندل .

فقالت أمه : لعلّهُ قد أحسّ القِتال الدائِر فى القصر ففَزِع وفرّ هَارِباً .

فقال صالح ، وقد ارتسمتْ على وجهِه علاماتُ الحزن :

واللهِ يا أُمى لقد بمنا الملِكَ بدر باسم رخِيصاً ، وأكبرُ ظَنى أنّه قد عثر عَلَيْه غِلمان الملِك ، أو وَقع فى أيدى جنودِه ، وأَخْشَى أن يَفتِكُوا به .

فقالت أُمُّه : لا تَقل هذا القولَ يا ولدى ، اِذْهبْ وابْحَثْ عنهُ ، فهو لا بُدّ قد اختَبأ فى مكانٍ ما .

فنهضَ صالح وهو يَبْكِي ، ويقولُ نادماً : ما الذى أَقُولُه لجلنار ، وقد أُخذَتْ ولَدها على غيرِ علمٍ منها ؟ !

وبعث صالح بالأعوانِ والجواسِيس ، يَبْحثُون عنه فى كل مكانٍ ، فلم يَقِفُوا له على أثَرٍ ، ولم يَعرِفُوا عنه خَبَراً .

فعادُوا إلى صالحٍ وأعلمُوه أنّهم لم يهتَدُوا إليهِ ، وقد أجهَدهُم البَحثُ ، وأضْناهم التعب ؛ فازداد حزنه ، وثقل عليه غمّه ، وضاقت الدنيا فى وجهِه ، حتى صارت على رحبها أضيَق من سُمّ الخِياطِ ، وأظلَمتْ فى عيْنيْه إظلاماً شديداً .

وأما جلنار فإنها انتظَرت أوبةَ ولدِها الملك بدر باسم هو وخاله صالح ، بَعْدَ أنْ يتريّضا فى البُستان ، ولـكنهما غابا ، وطالتْ غيبَتُهما ،

فساورهَا القلقُ . فأرسلت الروادَ للبحثِ عنهما ، فبَحثُوا ، ولكنهم لم يَعثروا عليهما ، وأخذتْ كل يوم تَستأنِفُ البحثَ على نطاقٍ أوسعَ من اليومِ الذى سبقَه ، حتى استَنفدَتْ جميعَ وسائِلها وحيَلِها ، ومع ذلك لم تقِفْ لهما على أثرٍ ، فضاقتْ ذرعاً ، وتوجسَتْ خيفَة ، وقررَتْ أن تذهبَ إلى أهلِها فى البحرِ تسألهُم عن صالِحٍ وعن ابنِها ، لعلهم يعرفون عنهما شيئاً . فنزلت إلى البحرِ ، وقَلبُها يَكادُ يَنفَطِرُ حُزْناً على ولدِها ، وقصدتْ إلى قصرِ أخيها ، ودخلتْ على أمها ، ورمَتْ نفسَها بين ذِرَاعيها ، وأجْهشَت بالبكاء ، فعانقتها أمُّها ، وانفجَرتْ هى أيضاً باكيةً لبكاء بِنتِها وهى لا تَعرِفُ لهذا البكاء سبباً ، وإنْ كان قَلبُها يحدثُها أنه من أجْل ابنها بدر باسم .

ثم حضَرتْ بناتُ عمها ، وأخذْنَ يواسينَها ويرَفِّهْن عنها ، ويسألنَها ما بها ؟ وأخيراً تمالكت جلنار نفسَها ، وسألَت أمَّها عن ولدِها بدر باسم . فقصَّتْ عليها والدتُها قصتَه من لحظةِ حُضوره مع خاله صالح لخِطبَةِ بنتِ الملك السمندل ، إلى أنْ أُسِر هذا الملك ، ثم اختِفاء بدر باسم بعد ذلك وترجيحهم أنه مُختَبِئ فى مكانٍ مجهول ، وأنه حىٌّ يُرزق . وأعْلَمَتْها أنهم لا يَفتُرون عن البَحثِ عنه ، وسيَجِدُونه إن شاء الله ، فلا يَحزُنك يا ابنتى أنه غاب بعض الوقت .

فما سمعتْ جلنار سببَ اختفاء ولدِها ، حتى غامت الدنيا أمامَ عَينَيْها ،

واتتابَها دُوار كادَتْ تَفقِد الوعْيَ فيه ، وعاودَت البكاء والنَّحيب ، وقد عصَرَ قلبها يأسٌ قاتل .

فما زالت أمُّها وبناتُ عمها يلاطِفنَها ، ويخففْنَ عنها ما بها بتأكيدِهن لها أنَّ ولدَها لم يَمُتْ ولَمْ يُقتَل ، بدليلِ أنَّه لَمْ يُعثر على جُثَّتِه بين جُثَثِ القَتْلَى ، وإن خالَه صالحا لا يَنِي عن إرسالِ الرسُلِ للبَحثِ عنْه ، وإنه لا بُدَّ أن نعثُرعليهِ عمَّا قريب .

وكانت جلنار قد امتلأ قلبُها بالغَيْظِ والغَضَبِ على أخيها لأَخْذِه ولدها من غير عِلْمها ، ودُون استِشارتِها . فقالت لأُمِّها تَسْأَلُها :

وأيْن أخِي صالح ؟

قالتْ أمّها : إنه جالسٌ على عرشِ المَمْلَكة مكان الملك السمندل فاطْمَئِنِّي يا ابنَتِي عَلَى ولدك ، فإنَّ فى يدِ أخيك كلَّ الوسائلِ الكفيلَةِ بالعثُور عليهِ ، فعُودِى أنتِ إلى مملكة ولدِك ، وسُوسِيها على طَريقة بدر باسم ، ودَبِّرِى شئُونها من حيث لا تَشعُر الرعيةُ أنَّ مَلِكَها غائبٌ غياباً طويلًا أو قَصِيراً .

ففكَّرَت جلنار قَليلا، فرأَتْ أن الحقَّ فى جانبِ أمِّها ، وأنَّ بَقاءها فى البَحر لا يُفِيد شيْئا ، فاستصوبَتْ العودَة إلى مقرِّ مُلكِها وملكِ ابنِها تدبِّر شئُونَه ، حتى يَقضِيَ الله أمْرا كان مفعولا .

فعادت إلى مُلكِها كسيرةَ النفسِ ، حزينةَ القَلْبِ ، باكِيةَ العَيْن ،

بعد أنْ أكّدتْ على أمّها ألّا يَفتُروا أوْ يَتهاوَنُوا فى البحثِ عن ولدِها ، الذى لا ترَى الدنيا إلا بهِ ، ولا تَشعرُ بها إلا بحياتِهِ .

(٧)

ونعودُ إلى بدر باسم فى الجزيرةِ التى تركَتْه فيها جارية الملِكة جوهرة ، فنراه لا يزالُ بها كما هو على هَيئةِ طائرٍ ، ولكنّه لا يَستطِيعُ أن يَطير ، ولا يعرف أين يتّجه ؟ ولا إلى أينَ يذهَب ؟ فأخذ يقتَات من ثمارِ الجزيرةِ ، ويشربُ من ماء أنهارِها .

وظلّ على ذلك الأيامَ والليالى ، وهُو لا يَعرفُ حِسابَها ، ولا يُدرِكُ عدَدَها ، ولا يَرَى أحدا ، ولا يرَاه أحدٌ ، حتى أتَى إلى الجزيرةِ أحدُ الصّيادين ، فدَارَ بها يبحثُ عن طائرٍ يَصيدُه ، ليتّخِذ من لَحمِهِ طَعاماً له يقتَاتُ به ، فوقَع نظَرُه على الطائر بدر باسم ، واقفاً وحيداً ، فأعجَبَهُ بياضُ ريشِهِ الناصعِ ، واحمرارُ رجلَيْه ومنقاره ، فوقَفَ أمامَه يَتأمّلهُ ، وقد سحرَه جمالُه ، وبهرَه حسنُ منظَرِه ، فعزَم على صيدِهِ حيّاً ، وَبَيعهِ بثمنٍ غالٍ ، فألقَى شبكتَه عليه وأمسَكه .

وعادَ الصيادُ بالطائر بدر باسم إلى مدينَتِه ، فقابلَهُ شخصٌ من سكانِ المدينةِ ، فسألهُ قائلا :

بكم تبيعُ هذا الطائرَ أيُّها الصيادُ ؟

فقال الصيادُ : وماذا تفعلُ به إذا اشتريتَه .

قال الرجل : أذبحُه وآكُلُه .

فقال الصياد : مَنِ الّذِى يطاوِعُه قلبُه أن يذبحَ هذا الطائرَ ويأكلَه ؟ إنّى لن أبيعَه ، ولكنى سأهدِيه إلى المَلِك ، فيَنفَحُنِى ضعفَ ما ستُعْطِينى أنتَ ثمناً له ، والملكُ لا يذبَحُهُ ، بل يتْرُكُه يمرَحُ فى قصرِه ، يتفرّجُ عليهِ ، ويشاهدُ حسْنَه وجمالَه ، فأنا طول عمرى أصيدُ الطيورَ ، وصادفنى منها أشكالٌ وألوانٌ كثيرةٌ ، فما وقعتْ عينِى على طائرٍ أجملَ من هذا الطائر .

ثم أخذَه وذهبَ به إلى قصرِ الملك ، وكان الملك إذ ذاك مُطِلا من شُرفَةِ قصرِه ، فوقَع بصرُه عليه ، فلما رآهُ أعجبَه جمالُه ، وبياضُ ريشِهِ وحُمرَةُ رجلَيْه ومنقاره . فأرسل خادِماً إلى الصيادِ وسأله : أتبيعُ هذا الطائرَ ؟

قال الصياد : بل هو هديةٌ للملك ، فقد ضننْتُ به على كلِّ من رغِبَ فى شِرائِه ، مهما بالغ فى ثمنِه ، رغبةً منى فى إهدائِه إليه .

فعاد الخادمُ إلى الملك وأبْلغه أن الصيادَ أحضرَ الطائرَ لإهدائِه إليه ، فأمر الملك بقبولِ الهديَّةِ ، ونقدَ الصيادَ عشرةَ دنانير .

أخذ الخادِمُ الطائرَ بدر باسم ، ووضَعهُ فى قفَصٍ جميل ، ووضعَ له من الحبُوبِ ما يناسِبُ الطيورَ ، ولكن الطائرَ لم يقربْها ، ولم يأكلْ منها شيئاً ، ولما نزلَ الملكُ إلى مجلِسِه تذكّرَ الطائرَ الذى عُرِضَ عليه ، فسألَ عنه الخادمُ ، فقال : لقد وضعْتُه يا مولاىَ فى قفصٍ ، ووضعتُ له

الطعامَ ، ولكنه لم يَقرَبْه ، ولا أدرِى ، ما الذى يأكله ؟!

فقال الملِك : أحضرْه حتى أراه .

فأحضَر الخادمُ القفصَ الذى به الطائرُ ، ووضَعهُ أمامَ الملك ، فرأى الطعامَ أمامَه ، ولم يأكلْ منه شيئًا ، فأخرجَه الملك من قفَصِه ، وأخذ يمسحُ بيده على ريشِه ، وهو معجَبٌ به أشدَّ الإعجابِ ، ثم قال آسفًا : إنّه طائرٌ جميلٌ حقًّا ، ولكننا لا نعرفُ ماذا يأكلُ حتى نُطعِمَه .

وحانَ وقت إعدادِ المائدة للملك ، فأُعِدَّت له ، وجلس يتناولُ طعامَه ، وبغْتةً قفز الطائرُ إلى المائدَةِ ، وأخذَ يأكلُ من جميعِ الألوانِ التى عليها ؛ من لُحوم ؛ وحَلْوى ، وفطائِر ، وفاكهة ، وغيرها ؛ فدهشَ الملكُ لذلكَ ، وتولّاهُ العجبُ . ولما أرادَ الخدمُ أن يمنعُوا الطائرَ ، ويُبْعِدوه عن المائدَةِ أشارَ لهم الملِكُ أنْ يَترُكُوه ، وقال :

إن أمرَ هـذا الطائرِ لعجيبٌ ، فما رأيْتُ طائرًا يأكلُ مثل هذا الطائرِ ، يعافُ أكلَ الطيور ، ويأكلُ أكلَ الإنسانِ ؛ لا يأكلُ الحبَّ رَطْبًا ولا يابِسًا ؛ ويأكلُ اللحم قدَيدَه وشِواءه ، حتى لَحم الطيرِ من جنسِه ، ويأكل الحلْوى على اختلافِ ألوانِها ، ويتناولُ الطعامَ بِترتِيبٍ ونِظام ، قلّما نَراهُ عِنْدَ غيْر الملوك ، إن هذا لأمرٌ عجيب .

وأمرَ الخدمَ أن يطلبُوا من زوجتِهِ الملكة الحضُور للتفرّج على الطّائِر . فمضى إلى جناحِها أحدُ الخدَم وطلبَ من خادِمتِها إبلاغَها دعوةَ الملكِ

إياها للحضورِ لمشاهدَةِ الطائرِ الجميلِ الذى أحْضِرإليهم اليَوم ، فهو يُعَدُّ أعجوبَة العجائب .

قَصَدَت الملكةُ من فوْرِها إلى مَجلسِ الملك ، وما كادَتْ تدخلُ وتنْظر إلى الطائر حتى أسدلَتْ على وجْهِها نِقَابَها ، وارْتَدّتْ راجعةً .

فدَهِش الملك من هذا ، وخرجَ خلفَها مُستَفْهِماً ، قائلاً لها :

لماذا أخفيْتِ وجْهَك ، وارتددْتِ مُسرعةً ، مع أنه لا يُوجد غير الجوارِى والخدم ؟ فقالت : أيّها الملك ، إنّ هذا الطائر ، ليس بطائرٍ ، وإنما هو رَجُل .

فضَحِك الملكُ لكلامِها ، وقال : ما أكثرَ ما تمزَحِين ، كيف يكونُ غيرَ طائرٍ ؟ ! قالت : والله ما مَزحْتُ ، وما قلتُ إلا حقًّا . إن هذا الطائرَ هو الملك بدر باسم ابن الملك شهرمان ، وصاحب بلاد العجم ، وأمه جلنار البحرية .

فدهش الملكُ وقال :

ماذا تَقُولين ؟

وما الّذِى أعلَمك ؟

وإذا كانَ ذلك حقًّا ، فكيفَ صار إلى هذا الشكلِ العجيب ؟

قالت : إن نَظرْتى إلى المسْحورِ تجعَلُنِى أعرفُ ساحِرَه أوساحِرَتَه ، لأن لكلِّ ساحرٍ طريقًا لا يَعرِفُه غيره ، أما أنا فإنى أعرِف هذه

الطُّرُقَ جميعها ، وإن مجرد نظرتِي إليه جعلتنى أعرف أنه قد سَحَرته الملكة جوهرة بنت الملك السمندل .

وكانت هذه الملكة من أسحَرِ أهلِ زمانها ، فحدَّثتْ زوجَها حديثَ بدر باسم من بدايتِه إلى أنْ سحرته الملكةُ جوهرة .

فقال لها الملك : بحياتِى عليكِ أن تُخلِّصيه من سحر جوهرة ، ولا تَدَعِيه معذَّبًا ، لعنَ اللهُ جوهرة ، ما أقساها ! وما أقبَحِ فعلَها !

قالت زوجتُه : سأفعلُ ، قل له : يا بدر باسم : ادْخُل هذه الخِزَانة .

فقال الملك ذلك للطائر بدر باسم ؛ ففَعل .

فتقدمَت الملكة من الخِزَانةِ ، وقد سترَتْ وجْهَها ، وبيدِها إناءٌ من الماء ؛ ثم تكلَّمت على الماء بكلامٍ لا يُفهم . وتمْتمت بكلامٍ يستَخْدِمُه السحرةُ فى سحْرِهم ، وقرأتْ آيات من القرآن ؛ وقالتْ : بحقّ هذه الأسماء العظام ، والآيات الكِرام ، وبحق الله تعالى ، خالِق السموات والأرض — أن تخرُجَ من صورتِك هذه التى أنتَ فيها ، وترجعَ إلى صورتك الأُولَى التى خلقَك اللهُ عليها.

فما أتمت كلامَها حتى انتفَضَ الطائرُ بدر باسم انتِفاضَةً شديدَةً ، وعادَ بعدَها إلى صورتِه البشريةِ الأولى .

فرأى الملكُ أمامَه شابًا مليحًا وسيما ، ليس على وجهِ الأرضِ أجمل منه .

وما كاد بدر باسم يُدْرِك ما طرأ عليه ، ويُحِس رُجوعَه إلى حالتِه

الأولى ، حتى نطَق قائلا : لا إله إلّا الله ، مُحمدٌ رسولُ الله .

ثم تقدَّمَ من الملك فقبَّل يَديْهِ ، فقبل الملكُ رأسَه ، وقال له :

يا بدر باسم ، علِمْتُ أنّ لَك حَديثاً عجباً ، فأَخْبِرْني خَبَرَك ، واصدُقْني الحديثَ . فحَدّثه بدرُ باسم بحديثِهِ كُلِّه ، ولم يُخْفِ منه شَيْئا .

فزاد عجبُ الملكِ ، وقال له : يا بدر باسم ، قدْ خلَّصكَ الله من السِّحرِ. فما الذى تُرِيد الآن أن تَفْعَلَهُ ؟

قال بدر باسم : يا مَلِكَ الزمان ، أُريد منْك أن تُضِيفَ إلى إحسانك إحساناً ، وأن تَزِيد إلى جميلك جميلا ، فتأمر بتجهيز مركبٍ لى مزوَّدٍ بجماعةٍ من خُدامِك ، كى أعودَ عليه إلى بلادِى . فإنَّ لِى زَمناً طويلا وأنا غائبٌ عنها ، وأخشَى أن يَذْهَب منى المُلْك ، أو أنْ يكونَ قد أصابَ والدتى مَكروهٌ ، فما أظنُّ أنها قد استطاعَتْ عيْشًا بعد غَيْبَتِى الطويلةِ عنها .

فقال له الملك ، وقد أحسّ نحوَه بعطفٍ شديد ، وامتلأَ قلبُه بحُبِه :

لا تحمل همًّا سأُجَهِّزُ لك ما تَطْلبُ وسوف تعودُ بإذنِ الله إلى دِيارِك سالمًا.

وَهيَّأَ الملكُ لبدر باسم ما وَعدَه به ، فَجَهّزَ له مركَباً ، وزوَّدَه بكلِّ ما يَحتاج إليه من البَحَّارةِ والزَّادِ .

وأقلعَ المركبُ وعَليه بدر باسم قاصداً بلادَه ، بعد أنْ وَدَّعَ الملك وداعًا حارًّا ، وشكَرَ له معروفَه وإحسانَه ومُروءته .

وسارَ المركب تدفعُه ريحٌ رُخاء طيبة ، وظلّ على ذلك بِضْعةَ أيام ، ثم تَلبَّد الجوُّ فجأةً ، فعصَفَت الريحُ ، وهاجَ البحر ، واضطربَ الماء ، وعلا

الموجُ ، وصار المركب لعبةَ الموج والهواء .

وأفلت الزمام من أيدِي البَحارة ، وصاروا لا يَدرُون إلى أيْن يَتَّجِهون ولا كَيْفَ يَنْجُون ؟!

واستمرَّت الأمْواجُ فى هياج ، والبحرُ فى إرغاء وَإزْبادٍ ، حتى أيْقنَ من على ظهرِ المركب أنْ لا نجاةَ لهم مِن الغرق ، ولا مَفرَّ لهم من الموت .

وحانَتْ اللحظةُ الرهيبَةُ ، والنِّهايةُ المحتُومةُ ، فاصطَدم المركب صدمةً عنيفة بصخرةٍ ناتئةٍ فى عرض البَحرِ ، فشَطرت الصخْرةُ المركَبَ وهشَمتْهُ ومزّقتْهُ .

وسرعان ما احتضَنَت الأمواجُ الرجالَ وابتلعتْهم ، وجعلتْ لهم من جَوفِها قُبُوراً ، ونسجتْ لهم من زَبَدِها أكْفاناً

وكان بدر باسم هو الشّخص الوحيد الذى نَجا ، بفضل حَصَانَتِهِ ضد المَوْج والبِحار ، واعتَلى لوحاً مِنْ ألواحِ المرْكَب المُمزّق ، وتشبث به ، لعلَّه يصل به إلَى بَرّ الأمان .

وظلت الأمواجُ تلعب به ، فترفعُه بارتفاعها ، وتخفِضُه بانخفاضِها ، ثلاثَةَ أيامٍ طوال ، وهو لا يَستَطِيعُ مقاوَمَتَها ، ولا يَمْلكُ إزاءها حَوْلًا ولا قُوّة . وأخيراً ، وبعد أنْ قاسَى بدر باسم المشاقّ والأهْوال ، ساقت الأمواجُ لوحَ الخشبِ الذى يَعتَلِيه ، وقذَفتْ به إلى ساحِلِ مدينة شُيِّدَتْ بيوتُها من الحجارَةِ البيض ، ويُحيط بالمدينة سورٌ عالٍ تَضْربُ فيه أمواجُ البحر العاتِية ، ثم تَرْتَدُّ عنه قانِطةً يائِسةً ، وفرحَ الملك بدر باسم



البغال والحمير والخيول تمنع بدر باسم
الخروج إلى الشاطئ

بخُروجهِ إلى هذهِ المدينةِ الجميلةِ الرابضةِ مثل الحمامَةِ البيضاء على شاطِئ جزيرةٍ كبيرة .

فترك َ اللوحَ ، وأراد الصُّعُود إلى المَدِينةِ ، وما كادَ يحاول ذلك حتى هبَطَ إليْه فى سرعةٍ عددٌ كبيرٌ من البغالِ والحميرِ ، وأخذت تَركُلُه وتَضرِبُه لتَمنَعه من الخُروج إلى الشاطِىء . فأرادَ أن يُقاوِمَها ويصعد على الرَّغْم مِنها ، ولكنَّهُ كانَ فى شِدَّةِ التَّعبِ والجوع والعطَشِ ، فلم يَستَطِع فلما يَئِس تَركَ هذا الشاطِىء ، وسبَح مستمِدًّا من يَأسِه قوةً أعانته على بُلوغ شاطِىء المدينةِ من الخَلْف ؛ وصعد إليْها ، فلم يجدْ هُناك أحَداً ، فعجِب لذلك ، وقال لنَفْسِه : لِمنْ هذه المدينة يا ترى ؟ إنّنى لَمْ أرَ فِيها غَيْرَ البغال والخيول والحمير .

وسار فى طرُقاتِها وهو يُفَكرُ فى مصيرِه فيها . ولكنّه ما لَبِثَ أن رَأى دُكانَ بقّال ، عَلى بابِهِ شيخٌ جالسٌ ؛ فما رآه الشيخُ ، وعرفَ فيه أنه غَرِيب عن المدينَةِ — حتى ناداه قائلاً : يا غُلامُ ؛ من أيْنَ أقْبلتَ ؟ وما الذى أتى بِك إلى هذه المدينة ؟ .

فحدثَه بدر باسم حديثَه كُلّه ، فتعَجّبَ الشيخ من حديثِهِ ، ورقّ له قلبُه ، وقال له : يا ولَدِى ، اصْعد إلى الدُّكانِ لئلا تَهْلِك .

فصعد بدر باسم إلى الدكان ، وأتاه الشيخُ بطَعامٍ ، فأكَلَ ؛ ثم سأل الشيخ قائلاً : ما الذى تَخشاه علىّ مِنْ مدِينَتِكم يا سيدى ؟ .

قال الشيخ : يا ولَدى ؛ اعلَمْ أن هذه المدينة مدينة السَّحَرة ، ومَلِكَتُها

ساحِرةٌ ماكِرَة ، وكأنّها الشيْطانُ بعينِه ، وما البِغال والخيولُ والحميرُ التي رأيْتَها إلا رجالٌ غرباء ، سحرتْهم هذِه الكاهنةُ الساحرةُ ، فإنّ كلّ شابٍّ غريبٍ يدخُلُ المدينــة تأخُذُه ، وتَعِيش معه أربعين يوماً ، ثم تَسحرُه ، فيصِيرُ بَغْلاً أو فَرَساً أو حِماراً ، وهذا الحيوانُ الذِى رأيتَه على شاطِىء البحرمن ضحاياها ، والسر فى أنّه لم يَدَعْكَ تخرج إلى الشاطِىء خوْفه عليك من أنْ تَسحرَك مثلَه ، وهذه الملكة ملَـكَتْ تلك المدينة من أهلِها بالسِّحر ، واسمُها الملكةُ لاب ، ومعناه بالعربية : تَقْوِيمُ الشمس .

فحزن بدر باسم لذلك ، وانقبَضتْ نفْسُه ، وقال متَحَسّراً : ما أكادُ أنجُو من بلاء السّحرِ الذى كُنْتُ فيه حتى تَرمِيَنِي المقادِيرُ فى شرّ منه .

فلما رأى الشيخُ ما اعترى بدر باسم من الهمّ والانقِباضِ ، شعر بعطف شديدٍ عليه ، وأحسّ حَنَاناً عظيما نحوَه ، وقال يُسَرّى عنه :

لا تَخفْ يا ولدى ، انْهضْ واجْلسْ ببابِ الدُّكان وسلِّ نَفْسَك بمشاهدَةِ الناس والتفرُّج على هذِه المخْلوقاتِ المسْحُورةِ بأشْكالِها وأجْناسِها ، ولا تَخْشَ شَيْئاً ما دُمْت فى حمايتِي ، فإنّ الملِكةَ وكلّ من بالمدينة يحبُّونَنِي ويبغُون رِضَائِي ، ويحرِصُون على مودَّتِي فنهضَ بدر باسم وجلسَ بباب الدكان ، وهو لا يزالُ حزيناً مغمُوماً ، يفكّرُ فى مصيرِه المظْلم ، فرآه الناسُ وعرفُوا فيه أنه غَرِيب .

فقالوا للشيخ : يا شيخ ، هل هذا أسِيرُك ؟!

قال : إنه ابنُ أخي ، وقد ماتَ أبُوه فأرسلْتُ إليه أستدعِيه لأراه ، لأنى كنتُ فى شوقٍ شديدٍ إليه .

فقالوا : إنه شابٌ مليح ، ألاَ تخافُ عليه من الملِكة فإنها إن رَأَتْهُ غدَرَتْ بِكَ ونقضَتْ عهدَكَ وأخذَتْه منك .

فقال الشيخ : إن الملِكة لا تَعصِى لِى أمْراً ، ولا تَنْقُض لى عَهْداً ، وهى تُحِبُنى وتَرعانِى ، وإذا عَلِمَتْ أنه ابنُ أخِى لا تتعرضُ لَه ، ولا تَسُوءنى فيه .

ومضتْ أيامٌ والملك بدر باسم مقيمٌ مع الشيخ وهو منعّمٌ مكرّم ، وقد أحبّه الشيخُ محبةً عظيمة .

وبينما بدر باسم جالسٌ بباب الدُّكانِ ذاتَ يوم على عادَتِه إذا بعدَد من الجنُودِ يمتطون الخيولَ العربيَّةَ ، ويتقلدُونَ السيوفَ الهنديّةَ ، ويرتَدُون الملابِس الثّمينة ، وقد تمنْطقُوا عليها بمناطِق مرصعة بالجوهر ، فلما مرُّوا بدكان الشيخ جاءوا إليه ، وسلموا عَليه ثم مَضَوْا فى طريقهم .

وبعد فترةٍ وجيزة أقبلَ عددٌ كبيرٌ من الجوارِى يرتَدِين الملابس المصنوعةَ من الحرير ، والمزركشة بخيوطِ الذهب ، وهُنَّ متقلداتُ الرماح ، وراكبات على خيولٍ سروجُها من الذهب المرصع بأنواع مختلفةٍ من الجواهر ، فلما أشرفْن على دكانِ الشيخ ، سلمْن كذلك عليه . ثم مَضَيْن .

وبعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ ، لاح فى الطريقِ موكب عَظِيم ، وكان هو

موكب الملكة لاب . وما زال الموكب يقترب حتى أشرفَ على دكانِ الشيخ . وكان بدر باسم لا يزال جالساً على بابه ، يتفرّجُ على هذه المواكب المتتالية ، ولم يَنصحْهُ الشيخ بالاختفاء فى داخل الدكان عند اقترابِ موكب الملكة ، لِعلمه أنّ نبأَ وجودِ بدر باسم عندَه لا بد أنْ يكون قد بلغها .

ووقع نظرُ الملكة على بدر باسم وهو جَالسٌ بباب الدكان ، وكأنَّه البدرُ قد هبَط من عليائِه ، أو ملاكٌ قد نزلَ من سمائِه ، فأخذَتْ ترمُقُه بنظَراتٍ طويلة ، لاحتْ فيها الدّهشَةُ ، وارتَسم فيها الإعجاب ، لشِدّةِ جاذِبيتِه وجماله .

وما رأى الجميع نظراتِها ، حتى أدركُوا غرضَها ، وقدّروا ما سَوفَ تفعَلُه مع بدر باسم فرجفَتْ قلوبُهم ، وتحسرتْ نفوسُهم ، ونظَروا إلى بدر باسم نظراتِ شفقةٍ ورثاء .

أما هى فقد أسرعتْ بالنُّزول، وتوجّهَتْ إلى دُكانِ الشيخ ، واتخذَتْ لها مَجلساً بجوارِ بدر باسم . ثم سألتْ الشّيخَ قائلة :

مِنْ أيْنَ لك هذا الشابُ المَليح ؟

قال الشيخ : هو ابنُ أخِي ، حضرَ عِنْدِى من وقتٍ قريب

قالت : دَعْه يَأتى مَعِى فإنى أريدُ محادَثته .

قال : أتأخُذينَه مِنّى ، ثم تَسحَرينَه ؟

قالت : لا ، إننى لن أفعلَ ذلك .

قال : أقسمى لِى أنّكِ إذا أخَذْتِه لا تسحَرِينَه .

فأقسمتْ له أنها لَنْ تسحرَه ، ولن تَمسَّه بأذى .

وأمرت جُندها بإحضارِ أحسن فرسٍ معهُم ليمتطِيَها بدر باسم ، فأحضروا له فرساً أصيلة ، سرجُها جلد مكسُوٌّ بالحرير الأخْضر ، ولجامها من الذهب الخالص فأمرت بدر باسم بامتطائِها ثم نهضَتْ ، ونقَدت الشيخَ مائةَ دينار ، وامتطَتْ ركوبَتَها ، وسار الموكب . والناسُ تشيّع بدر باسم بعيونٍ مِلؤُها الشفقةُ ، وقلوب تَفيضُ بالحسرةِ ، لِما توقّعُوا أنْ سَيلْحَقُه مِنْ أذى هذه الملكةِ الشّرّيرة .

(٨)

سار بدرُ باسم فى صُحبةِ الملكةِ لاب وموكبها وقد فوّض أمرَه إلى الله ، ولما وصَلُوا إلى قَصرِها، ترجّلوا جميعاً ، وأمرت المِلكةُ الأمراء وكِبارَ رجالِ الدّولةِ بالانصِراف ودخلَتْ هى القصرَ برفقةِ بدر باسم ، يَتْبَعُها خدَمُها وجواريها .

وتأمّلَ بدر باسم فى بِناء القصر، فرأى ما حيّرَهُ وأدهَشه ، رأى قصراً قد قُدّتْ أحجارُه من الذّهبِ الخالِص ، يُحيطُ به بُستانٌ عظيم ، تتوسّطه بِركَةٌ كبيرةٌ ، غزيرةُ المِياه .وشاهدَ طيوراً كثيرةً عجيبةً وغريبةً ، منها ما يَصدح بأصواتٍ رَخيمة ، ونغماتٍ شجية ، ومنها ما لَهُ صَوْت مُنكَرٌ كريه .

فلم يتمالك بدر باسم أن انطلق لسانُه ، بتَسبيحِ الله جَلَّتْ قدرتُه ، وعَظُمَ تَدْبيرُه ، فهو يمنَح من يَشاء ، ويمنَع من يشاء ، فيرزق هذه الملكة الشريرة كل هذا الرزق الواسع العريض ، ويحرم الأتقياء الصالحين ، ولكنّ هذا كلّه من تَدْبيرِ الله ، فليستْ سعةُ الرزقِ رضاً ، وليس ضيق الرزق غَضَباً .

وأخذت الملكة بدر باسم ، فأجلسته بجانبِها فوق سريرٍ من العاجِ ، كُسِي بالحشايا الحريرية الوثيرة ، وكان السريرُ بجانبِ نافذةٍ واسعةٍ ، تُطِلُّ على بُستانِ القصْر ، وأمرت خدمَها وجوارِيَها بإحضارِ المائدةِ ، فأحضروا خِواناً من الذّهبِ الأصفر ، رُصّعت جوانبُه بالدرّ والجوهر ، ووضَعُوا عليــه من الأطعمةِ أنواعاً وألواناً قـــد أُتقِنَ طهوها ، وحُسْنُ إعدادها .

وبعد أن أكلَتْ هي وبدر باسم ، رُفِعَت المائدةُ ، وسرعانَ ما أحلّت محلَّها أواني الشراب ، وكؤوسَ البلور المغلّفة بالذهبِ والفضة ، وطاقات الأزهار والريحان ، وأطباق الفواكه المجففة والطازجة .

وطلبت الملكةُ إحضار المغنّيات فحضَرتْ عشرُ جوار كالأقمار ، وبأيديهنّ سائر آلات الطرب .

وملأت الملكة قدحاً من الشرابِ وشربته ، وملأتْ آخر وضَعته في يَدِ بدر باسم ، وطلبَتْ منه أن يشربَه ففعَل ، ثم أمرت المغنّيات بالغِناء ،

فانطلقن يغنّين بأصواتٍ عذبةٍ ، وألحانٍ جميلة ، وتجاوبَتْ أرجاء المكانِ تردّدُ الأنْغام الموسيقية الشجية .

وما زالت الملكةُ تعُبُّ من الشرابِ عبًّا ، وتحث بدر باسم على الاقتداء بها ، حتى دارَ رَأْسُه ، وطاشَ عقله ، وذهب صَوابُه ، ونسى نفسَه وحالتَه وغُربتَه . وخيِّل إليه أنَّ هذه الملكة ليس هناك أحد أشد منها كَرماً ، ولا أبهى جمالا ، ولا أوسع ملكا ، وعزم على البقاء معها ، وقد انشرحَ صدرُه ، وصفَتْ نفسُه .

ولما أصبحَ الصباح ألبست الملكة بدر باسم أبهى الحُلَل وأفخرَها ثم أمرَتْ بإحضار أوانى الشّراب وآلات الطرب .

وهكذا انقضَتْ الأيامُ على هذِه الوتيرة ، وانصرَمَ نحو من أربَعين يوماً وبدر باسم مشدوهٌ مسحورٌ بين لَهْوِ الملكة وعبَثِها .

وقالت الملكة يوماً لبدر باسم : يا بدر باسم ، أهذا المكان أطيبُ أم دكان عمّك البقّال ؟ .

فقال لها على الفورِ : أيتها الملكة لاب والله إن هذا المكانَ لأفضَلُ ، وإنه لأطيبُ كثيراً ، وإن أى مكانٍ تحلُّ فيه الملِكةُ يكونُ أفضَل الأماكِنِ وأطيبَها ، والخير فى رِكابها ، والحَنان فى قَلْبِها ، والسعادةُ كلّها لمن تَرضَيْن عنه ، وتعطِفِين عليه ، وما عَمّى إلا رَجُلٌ بائسٌ فقيرٌ ، ليس عندَه فى دكانِه ما يُغنِيه .

فسُرّت الملكة ، وضحِكَتْ لكلامِه ، وقرّبَته منها ، وأدنَته إليْها ،

وعابَثَتْهُ وعاشَرتْه ، فى لَهْوٍ ومنادمَةٍ وسرور ، وجوار وقيان ، ومغنين ومغنيات ، وعلى هذه الحال كانا يُصبحانِ ويُمْسِيَان .

وفى إحدَى الليالِى انتبَه بدر باسم من نَومِه ، فلم يَجِدْ الملكةَ فى فِرَاشِها ، ثم مَضى الليلُ إلا أَقلَّه من غيرِ أن تأوِى إلى مَخْدعِها لتَنام ، فعجِبَ لذلك ، وقال فى نَفْسه :

يا ترى إلى أين ذهبت الملكة ؟!

وخطر ببالِه أنها قد لحقها أرَق ، فخرجَتْ إلى البُستانِ تَستَنْشِق الهواء ، فنهض من فِراشِه ، وخرجَ إلى البستانِ يَبْحَثُ عنها فلم يَجِدْها ، ولكنّه وجَد فوق شَجرةٍ كبيرة على شاطِئ نهر يَجرى أمامَ البستان عدداً كثيراً من الطيور ، مختلفَ الأجناس ، والأشكالِ ، والألوان ، فتعجّبَ من أمْرِ هذه الطيور التى تَستيقِظُ فى مثل هذا الوقت وأخَذَ يَرْصُد حركاتِها من غيْرِ أن تَراه فى ذلك اللّيل البَهيم .

وحانت منه التفاتَةٌ إلى شاطِىء النّهرِ ، فوجد بجانبه طائرةً بيضاء كبيرة ، واقفةً وحدَها ، ولم يمض غير قليل حتى هبَطَ بجانبِ الطائرةِ البيضاء طائر أسوَد .

ومرّ وقت وبدر باسم فى مكانِه لا يَبْرحُه ، يُراقِب هذه الطيور الليليّة العجيبة ، ولكن كَمْ كان شديد العَجَب ، عميق الدهشة حينما شاهد الطائرةَ البيضاء ابتعدت عن الطائرِ الأسودِ ثم انتفَضَتْ انتفاضةً

أصبحت على أثرها إنسانةً ، ما تأملها بدر باسم مَلِيًّا حتى كادَ يخرجُ من عَقلِه ، فقد كانتْ هي نفسها الملكة لاب .

فعاد إلى مرقَدِه ، وهو على وشَك أن تتفجَّر في رأسِه دماء الغَضب ، غيظاً وغيرة من فَعلة الملكة لاب ، وأدرَك أن هذا الطائرَ الأسوَد ما هو إلا إنسان مسحورٌ ، وإنها تَسْحَر نفسَها طائرةً من أجله .

وبعد برهةعادت الملكة إلى مَخدَعها،واستَوتْ على فِراشها،ولاحَظت أن بدر باسم مستيقظٌ قلقٌ ، لم تَغْتَمِض عيْناه، ولم يَزُرْهما النومُ ، فاقترَبَتْ منه وأخذَتْ تُلاطِفُه، وتمازِحُه ، وهو صَامتٌ لا يُجاوِبُها من شدةِ ما بِهِ من الغِلِّ والغَيْظِ ، ففَطِنَت الملكة إلى ما بِه ، وأدْرَكَت أنه قد رآها وهي طائِرة مع الطَّيْر الأسْود ، فسكتتْ ولم تُظهِر شيئاً وقد أضمرتْ له في نَفْسها شرًّا .

وفي الصباح قال لها بدر باسم : أيتها الملكة لاب ، أريد أن تأذَني لي بالذهاب إلى عَمّي ، فقد تاقَتْ نفسِي لرُؤْيته .

فقالتْ له : لا بَأسَ ، اذهبْ إلى عَمِّكَ ، وزُرْه ، وأحْسِن إليْه ، ولكنْ لا تُبطِئْ عليّ ، فإني لا أستَطِيع أن أصْبِر على فِراقِك .

فقال : سَمْعاً وطاعة .

ثم ركب ومضى إلى دُكان الشيخ .

فقابله الشيْخُ بسرورٍ عظيمٍ وترحابٍ شديد ، وحفاوةٍ بالغةٍ ، وقال له :

كيف حَالُك يا بدر باسم مع هذه المِلكة الشريرةِ الكافِرة الفاجِرَة ، اللئيمةِ الطبْع ، الخبيثة الأصل .

قال : كنت معها على خَيْر حالٍ حتى لَيلةِ أمْس ، إذِ استَيقَظْتُ ليلاً فلمْ أجِدْها فى فِراشِها ، فأخَذْتُ أبحَثُ عنها ، إلى أن خَرجْتُ إلى البُستان . . .

وأخْبر الشيخَ بما حدَث منه ، وبما رأى منها بجانبِ النهرِ ، وبالطّيور التى كانَتْ فوقَ الشجرة . فقال له الشيخ : اعْلَم أن هذهِ الطيور ما هى إلا شَبابٌ غُرَباء سحَرتْهم وصيّرتْهم طيوراً . وذلك الطائر الأسودُ الذى رأيتَه كان واحداً من مماليكِها الذين تَصْطفيهم ، غضبت عليهِ يوماً ، فسحَرتْهُ طائراً ، لأنه تجاسَر ورفَع عيْنَه إلى جاريةٍ من جوارِيها ، وكلما حنَّتْ إليه سَحرتْ هى نفْسَها طائرةً مثله . وإذْ أنها عرفَت الآنَ أنكَ ألْممْتَ بحالها ، فلنْ تتركَكَ تَعيشُ بسلام ، بل ستُضْمِر لك الشّر ، وتَكيدُ لك كَيْداً . ولكِن لا تخَفْ ، فإنّى سأرعاك ، وأحميك منها ، ومن سِحْرها . فأنا رجُل مُسلِم ، واسْمى عبدُ الله ، وليس على وجْهِ الأرْض أحدٌ أسْحرَ منى ، ولكنّى لا أستَعْمِل السّحرَ إلا عنـدَ الضّرُورةِ القُصْوى ، وكثيراً ما أبطِلُ سحر هذهِ الملعونةِ ، وأخلِّصُ الناسَ من شرّها وأذاها ولا أبالِى بها فليسَ لها علَىّ من سَبيل . بل تخَافُنِى وكذلك يخْشانِى كلُّ من بِالمدينة من الذين هُمْ على شاكِلتِها ، ويشْتَغِلون بالسّحر ، وهُمْ جميعاً على دِينها ، يَعبُدون النارَ دونَ الواحِدِ القهارِ . فغَداً يا وَلَدِى

تحضُرُ إلىَّ وتُخبِرنى بما سيَكُون مِنها معك اليوم ، حتى أُبطِل كَيدها ، وأرُده فى نَحْرِها .

فودَّعَ بدر باسم الشيخ ، وذهبَ إلى قصْرِ المَلِكةِ فوجَدها جالسةً فى انتظارِه .

فلما رأته أظهرَت السُّرُورَ بحضُورِه ، وأجلسَتْهُ بجانِبِها ، وأمرتْ بإحْضارِ الطعامِ ، ثم ثنّتْ بطلبِ الشراب ، وأخذَت تحتَسى وتسقِيه حتى غابَ عن إدْراكِه وحِسّه ، فعندَ ذلك سألته قائلةً : بحقِّ معبُودِك ، إن سألتُكَ عن شَىء ، أتخْبِرُنِى عَنه صِدْقًا ؟

فقال وهو لاَ يَعِى من السُّكْر : نَعَمْ يا سيدتى .

قالت : ياحبيبى ، أكانَ غضبُك لأنّكَ رأيتَنِى فى صُورةِ طائرةٍ مع الطائِرِ الأسودِ ، الذى كانَ من ممالِيكى ، وغضِبتُ عليهِ ، فسحَرْتُه على هذا الشّكْلِ ؟ أم كان غضبُكَ لشىء آخر ؟

قال : إن غَيْظى كان لهذَا السبَبِ ، وليسَ هناكَ سببٌ آخرُ فما نَقتْه ، وقالَتْ له :

وحقِّ النارِ والنُّور ، والظِّلِّ والحَرُور ، إنى قد ازدَدْتُ محبةً فيك ، وتقْدِيرا لك ، وسأجعلُكَ كل أملى مِن الدُّنيا ، ولن أتخِذَ غيرَكَ بَدِيلا ، ثم ذَهبَ كُلٌّ مِنْهما إلى فِرَاشه .

وكان قد ذهبَ عن بدر باسم بَعضُ ما به مِنْ غشْيةِ السُّكر ، فانْتَبه نَوْعًا من الانتِباه وتذكر وصيَّة الشيخ له .

فلم يَنَم بل ظَلَّ مستَيقِظاً منتَبِهاً لما سوفَ تفعَله الملكة ، وإن كانَ قد تَظَاهر بالاستِغرَاق فى النوم .

وعند انتِصافِ الليلِ أحسَّ بدر باسم بالمَلِكَة تقومُ من فِراشها ، فخالَس نحوَها نظراته ، وعيناه شبْهُ مغمضة ، فرآها قد أخْرجَت مِن كيسٍ شَيْئاً أحمر أخذَته فى يَدِها ، وغادَرت الحجرة ، فنَهضَ فى خِفَّةٍ ، وسَار خلفَها يستَرِقُ الخطا ، إلى أنْ وصَلَتْ إلى البُسْتان ، وغرسَتْ هذا الشىء الذى معَها فى الأرْض ، فإذا بِسَائِلٍ كأنه ماء قد انفَجَر جاريا مثل النهر . فأخرجَتْ من جَيْبِها حَفْنة حَبٍّ مثل الشعير وبذَرته بجانِبِ الماء ، وأخَذت تَسْقِيه تِباعا من هذا الماء الذى فجرته . فسرعان ما نَما وازدَهر ، وصار زَرْعا ناضجا ، ظهرَت سنابله ، وجفَّت عيدانه ، فحصَدتْه ، وأخَذته ، وهمّت عائِدةً إلى القَصْر ، فأسرَع بدر باسم بالعودَة إلى فِراشِه ، والتظاهُر بالنوم .

فلما كان الصباح ، أبدى بدر باسم رَغْبَته فى الذهابِ إلى عمّه الشيخ فلمْ تُمانِعْ وتركَته يَذهَب .

وقصّ بدر باسم على الشيخ ما رأى ، فضَحِك ، وقال :

والله لقد انْتوتْ هذه الملعونَة الغادِرَةُ أن تمْكُر بِكَ ، لكِنْ لا تُبَال بها ولا تخْشَ بَأسَها .

ثم أخرج له نوعاً من الحَبّ ، وقال له :

خذ هَذا السّويق ، وحاوِلْ أن يَقع نَظرُها عليه ، فهى عِندما تراه

ستقولُ لَكَ : لِمَ أحضَرْتَه ، وعندنا مِثْلُه ؟ !

ثم تُقدِّم لكَ من سَوِيقِها لتأكل ، فتَظاهَرْ بالأكلِ وكُل مِنْ سَوِيقِك أنْتَ ، وإياكَ أن تأكُلَ من سَوِيقِها ، ولو حَبَّةً واحدَةً ، فإنَّك إنْ أكَلتَ منْه تمكَّن مِنْك سِحْرُها ، وتُخرِجُك من صُورَتِك البَشرِيةِ إلى أيَّةِ صُورةٍ تُريدُها لك .

فإذا ما أرادَت سِحْرَك ، ولم تَتمكَّن وبَطَل سحرُها — فإنَّها ستَخجَل منك ، وتُظهِرُ المحبَّةَ والتودُّدَ ، فتظاهرْ بأنَّك لم تفْهَم شَيْئًا ، وأنكَ تُبادِلُها حبًا بحبٍّ ، وموَدَّةً بِودَّةٍ ، وأَعْطِها لتأكُل من هَذا السَّوِيق ، وقُلْ لها : إنَّه شَهِيٌّ ، لذِيذُ الطَّعم ، فإذا أكلَتْ منه ، ولَوْ حبةً واحدة ، فخُذ فِي كَفِّك ماء ، وألقِه عَلَى وَجْهِهَا بِسُرعَةٍ ، قَبْل أن تَفْطِن هِي إلى ما ستَفْعَلُه بها ، وقُلْ لها : اخرُجِي مِنْ هذهِ الصُّورَةِ البَشرِيةِ إلى أى صورةٍ أردْتَ ، ثم اترُكْها ، وتعالَ إليَّ ، لأُدبِّرَ لَكَ أمْرًا .

فشكرَه بدر باسم ، وودَّعَه ، وعاد إلى قَصرِ المَلِكة .

وقابلته الملكة بالترحيب ، وعاتَبَتْه على غِيابه ، فقال :

كنت عند عَمِّى يا سيدتى ، وقد أطعَمَنِي من هذا السَّوِيقِ اللَّذِيذ الذى ما ذُقْتُ أطعم منه فى حياتِي ، فرأيت أن آتى إليك بشىء منه .

فقالت : ونَحن عندنا سَوِيقٌ أحسن منه ، سأُطعمك منه لترى أيُّهما ألذ طعما ، وأطيب مَذَاقا .

وأخذَتْ منه السَّوِيق ، ووضَعَتْه فى طبق ، ثم أتَتْ بسَوِيقها ،

ووضَعَتْه فى طبق آخر ووضَعَتْهُ أمامَه ، وقالت له :

كل يا حبيبى من هذا السَّويق فإنه أطْيَبُ من سويقك .

فأخذ شيئاً منه وتظاهر بأنه يأكُل منه وإنَّما كانَ يأكُل من بعضِ ما أعطاه الشيخ ، وكان يخفيه بَيْن ثيابه .

فلما تيَقَّنَتْ من أنَّه قد مَضَغ السَّويق و بَلَعَه ، واستقَرَّ فى جَوْفِهِ . أخَذَتْ بيدها حَفْنَة ماء ، و نَثَرَتْها على وجْهه ، وقالت له :

اُخرجْ يا لَئِيمُ من هذه الصورةِ ، وكُنْ فى صُورةِ بَغْل أعْور ، قَبيح المَنْظَر ، ونظَرتْ إليه ، فرأتْه لم يَتَغَيَّر ، بل ظَلَّ على حَالِه كما هو ؛ فدَهِشَتْ لذلك ، وارتَبَكَتْ ، ولكِنَّها أخفَتْ دَهْشَتَها وارْتِباكَها ، وضَحِكَتْ ، ونهضَتْ إليه ، فقبَّلَتْه ، وعانَقَتْه ، وقالت له :

يا حبيبى ، هل وقر بِنَفْسك شَىءٌ بسبَبِ مزاحِى مَعك ؟

قال ، ليسَ فى نَفْسِى شىءٌ قَطُّ من ناحِيَتكِ ، بل أنا أزدَادُ محبةً لكِ ، كلَّما رأيتُ محبتَك لِى ، ولكن ، يا سيِّدتِى ، ألَا تأكلين شَيْئاً من هذا السَّويق الذى أحْضَرتُه . فأخذتْ منه قَليلًا ، وأكلَتْه ، فما استَقَر فى بَطْنِها حتى اضطربَتْ ، وتَغَيَّر حالُها ، فأخذ بدر باسم بيدِه حفْنةً من المَـاء ، ورشَّها على وَجْهها ، وقال لها :

اُخرجى من هذه الصورَة البشَرِيةِ إلى صورةِ بغلةٍ زرزورية .

فلم تلبث أن رأت نفسَها على الصورةِ التى أرادَها لها ، فجرتْ دموعُها على خدَّيْها ، وأخذت تُمرِّغُ وجهها على أقْدام بدر باسم ، فنَهضَ ، وأراد

أن يُلجِمَها فلم تَقْبَل اللجام ، فتركها وذهبَ إلى دكان الشيخ .

فلما ألمَ الشَّيْخُ بما تَمَّ ، نهضَ وأحضر لِجاماً ، وأعطاهُ بدر باسم ، وقال له :

خُذْ هذا اللِّجام وألْجِمها به .

فأخذ بدر باسم اللِّجامَ وعاد إليها ، وألجمها به ، فقَبِلَتْه ، ولم تُمانِع ، ثم امْتَطاها ، وخرج بِها من القَصر وذَهَب إلى دكان الشيخ .

فلما رآها الشيخ ، قال لها : قد أخْزاكِ الله يا مَلْعُونة .

ثم قال لبدر باسم : ما بَقِى لك ياوَلدى مُقام فى هـذا البَلد ، فارْكَبْها وسِرْ بها إلى أىِّ مكان شِئْت ، وإياكَ أن تُسَلِّم لِجامها لأحد .

ثم عانَقَه وودَّعَه ، وأعطاهُ ما يُعِينُه على رِحْلتِه ، فشكره بدر باسم وسار بالبَغْلةِ حتى خَرَجَ من المدينة .

وبينما هُوَ يَجِدّ فى السَّيرِ ، إذ رَأى شَيْخًا هرِماً جَلَّله الشَّيْبُ ، قد اعتَرَضَ طرِيقَه ، وسأله قائلا : يا ولدى من أيْنَ أقبَلْتَ ؟

قال : من مدينَةِ السَّاحِرَة .

فقال الشيخ : أنْت ضَيْفِى فى هذِه اللّيْلة .

ثُمَّ صاحَبَه ليذهبَ بِهِ إلى منْزِله ، وفى طريقِهما مَرّا بامرأةٍ عجُوز ، فما وَقَعَ نَظَرُها على البَغلةِ حتى بكَتْ ، وقالت : لا إله إلاّ الله ، إن هذه البغلةَ تُشْبِه بَغْلةَ ابْنِى التى ماتَتْ ، وقلوبُنا حزِينَةٌ من أجْلِها ، فبالله عليك يا سيِّدِى أن تَبِيعَنى إيَّاها .

فقال لها بدر باسم : والله يا أمي لا أستطيعُ أن أبيعَها .

فبكَتِ المرأةُ ، وقالت : بِالله عليكَ يا سيدى لا تَرُدَّ سُؤالِي ، فإنَّ وَلدِى إنْ لَمْ أشترِ لَه هذه البغْلةَ فهُوَ مَيِّتٌ لا مَحالَةَ .

وأخذت تَسْتَعْطِفُه ، وتُلِحُّ عليْه ، وتُلْحِفُ فى الطَّلَب .

فلما تَعبَ من إلحاحِها أرادَ أن يُسْكتها بإعجازِها عن دَفع ثَمنِها فقال لها :

أنا لا أبيعُها إلاّ بألفِ دِينار .

قال ذلك وهو مُوقنٌ أنّ هذه المرأةَ العجوز التى تَبْدُو عليها مظاهِرُ البُؤْس والفَقْر ، لا يمكنُ أن تَمْلِك مثل هذا المَبْلغ من المالِ ، ولكن ما كانَ أشَد دهشَتَه حين أخْرجَت له المرأةُ من حِزامِها ألْفَ دِينار ، ومدَّتْ يَدَها بِها إليه .

فلم يَسعْ بدر باسم إلَّا أنْ قال : يا أُمّى ، إنما أنا أمْزَحُ مَعَك ، وما أستَطيعُ أن أبيعَها قَطّ .

فنظَر إليه الشيخُ وقال : يا وَلدِى ، إن هذه البَلدةَ لا يكذِبُ فيها أحدٌ . وكلُّ من كذبَ فيها قتلُوه ، ولا يغدرُ فيها أحدٌ ، وكل من غدرَ فيها قتلُوه ، وأنْتَ الآن إن لَمْ تسلِّم العجوزَ البغلَةَ تكُون قد كَذَبْتَ وغدَرْتَ .

حينئذٍ لم يَسعْ بدر باسم إلا النزولُ من فوق البغلةِ ، وتسليمها إلى العجوز ، فأخرجت اللِّجامَ من فَمِها ، وأخذَت فى يَدِها قليلًا من الماء من

زُجاجةٍ معها ورشّتْها على وَجهِ البغلةِ ، وقالت :

يا ابنَتى ، اخرجِى من هذهِ الصّورة إلى صُورتِك الأُولى التى كُنْتِ عليْها فانْقَلَبتْ فى الحال ، وعادَتْ إلى صورتها الأولى ، وأقبَلتْ كلٌ منهما على الأُخرى تُقبّلها وتعانقُها .

فعلِمَ بدرُ باسم أن هذه العجوزَ أمُّها ، وأنها احتالت عليه بهذهِ الحيلة لتخليصِها فأراد أن يَهْرُبَ ، وينجُوَ بنفسِه من شرِّهما ، ولكن العجُوزَ أسْرَعت وصفَرت صفْرة عالِيَة ، مَثُل أمامَها على أثَرِها عِفريتٌ ضَخْم ، مثل الجَبَلِ الشّامخ ، فركبَت العجوزُ على ظَهرِه ، وأردفت ابْنَتَها خَلْفها ، وأخذَت بدر باسم أمَامَها ، وطارَ العفريت بهم جميعاً ، وما هِيَ إلا طَرْفةُ عَيْن حتى كانُوا فى قصر الملكة لاب ، وجَلست الملكةُ فوقَ سريرِها ، والتفَتَتْ إلى بدر باسم وقالت :

قد عدتُ إلى مكانِى ، ونلتُ بُغْيَتِى ، وسوف أُريكَ ما سأفْعَل بكَ أيُّها اللّئيم الغادر أنتَ وذلك البَقّال الحقِير ، الذى ما فَعَلْتَ فَعْلَتَك إلا بمُسَاعَدَتِه وإرشادِه ، فكم أحسنْتُ إليه ، وهو يُسِيءُ إلىّ .

ثم أخذَت بيدِها ماء من الزُّجاجة التى مع أُمّها ، وألقتْه على وجْهه ، وقالت له : اُخرج من هذه الصورة البشريةِ إلى صورةِ طائرٍ قبيحِ المنظرِ ، ليس على وَجْهِ الأرْضِ أقْبح منه .

فانقلَبَ بدر باسم فى الحالِ إلى طائرٍ قبيحِ المنظرِ ، بشعِ الشكلِ ، منتوفِ الريش ، فأمرتْ بحبسِه فى قفَصٍ من غيرِ طعامٍ ولا شراب .

وكان فى قصرِ الملكة جاريةٌ مسلمةٌ مؤمنةٌ بقَلْبِها ، تحقد على الملِكَة

لشرورها ، وتشمئز من أفعالها ، فعطفت على الطير بدر باسم ، وصارت تحمل إليه الطعام والشراب ، فتطعمه وتسقيه فى خفية منها

وفى أحد الأيام غافلت الجارية سيدتها ، وتوجهت إلى دكان الشيخ البقال وقالت له :

إن الملكة لاب قد عزمت على إهلاك ابن أخيك .

ثم قصت عليه ما كان ، فشكرها الشيخ على سعيها إليه ، وقال :

الآن قد آن أوان العمل واللجوء إلى ما كنت أكره الالتجاء إليه ، ولا بد من أخذ هذه المدينة ، وجعلك أنت ملكة عليها جزاء لك على مروءتك ومعروفك .

وصفر الشيخ صفرة عالية فحضر أمامه فى الحال عفريت ذو أربعة أجنحة ، فقال له :

خذ هذه الجارية ، وامض بها إلى مدينة جلنار البحرية وأمها .

ثم قال للجارية : إذا وصلت إلى هناك ، فاخبريهما أن الملك بدر باسم فى أسر الملكة لاب ، فإنهم الآن أسحر من على وجه الأرض ، وقد أطاعتهم ملوك الجن فى البر والبحر ، بعد أن تغلبوا على الملك السمندل .

وحمل العفريت الجارية ؛ وبعد وقت قصير كان على سطح قصر الملكة جلنار فنزلت الجارية إلى القصر ، ودخلت على الملكة جلنار ، وقبلت يديها . وأخبرتها بما حدث لولدها .

فلما علمت الملكةُ جلنار أن ولدَها على قيدِ الحياة ، وأن فى الإمكانِ تخليصَه فرحَتْ فرحاً شديداً ، وأكرَمت الجاريةَ إكراماً عظيماً .

ثم نهضَتْ ، فأخبرتْ كبارَ رجالِ الدولةِ بخبرِ وجودِ الملك بدر باسم . ففرحُوا جميعاً لذلك لأنهُم كانوا يحبُّونه لعَدله وتواضُعِه ، ولا يرضَون بغيرِه بديلا .

وسرعان ما دَقّت البَشائِر ، وشاعَ الخبرُ فى جميع أرجاء البلادِ ، فعمّ الفرحُ والسرور .

أما جلنار وأمُّها وأخُوها فقد أخذوا فى الاستعدادِ والتأهُّبِ للذَّهاب إلى بدر باسم وتخليصِه من سِحْرِ الملكةِ لاب . فأعَدوا جميعَ جنودِ البحر ، وأحضرُوا قبائلَ الجن ، فحملُوهم إلى مدينَةِ الملكة لاب ، فهبطُوا على قَصْرِها هبوطَ الصاعِقَة ، فما شَعَرَ أهلُ القصْرِ إلا والقَتْلُ يَأْتِيهِمْ من كُلّ ناحِيَةٍ ، وهم بين شِقّى الرّحَى ، لا يعرِفُون لهم مَخْلَصاً ، وفى مِثْل لَمحِ البَصَرِ كانَ كُلُّ من بالقَصْرِ قــد فَنُوا عن آخِرِهم ، بما فيهم الملكة لاب .

أما الملكة جلنار فلم يكن لها هَمّ من وقتِ أن وضَعتْ قدمَها على أرضِ القصرِ ، إلا أن سألت الجاريةَ التى حضَرتْ إليها عن المكانِ الذى به بدر باسم ، فأسرعَت الجاريةُ ، وأحضرت القفَص الذى به الطائرُ بدر باسم ووضعته بين يدَيْها وقالت لها :

هذا هو ولدُك يا سيدتى .

فلما رأته الملكة جُلنار بكَتْ ، وأخذت إناء ماء ، وقرأت عليه ثم ألقت الماء فَوقه ، وقالت له : اخرجْ من هذه الصورةِ إلى الصورة التى كنْتَ عليها .

فلما أتمتْ كلامَها حتى انتفضَ الطائر بدر باسم ، وصار بَشراً كما كان وأخذته أمُّه بين ذِراعَيْها ، فارتمى على صَدْرِها فى سَكْرةٍ من فَرْحَة اللقاء ، وأقبلَ خالُه صالح وجدَّتُه وأقارِبُه ، فأخذوا يعانقونه ويقبلونه فَرِحين .

وبعد أن أطفئوا شوقَهم باللِّقاء ، قَصَّ عليهم بدر باسم قِصّته العجيبةَ ، وما شاهدَه وما قاسَاه ، وقَصُّوا هم عليه ما لاقَوه بسببِ غيابِه من المشاقّ والآلام ، ثم أرسلت الملكةُ جلنار فى طلبِ الشيخ عبدِ الله ، وشكرَتْه كَثيراً على ما فَعله من الجميلِ مع ابنِها .

ثم طلبتْ إليه أن يتزوجَ الجارية التى أرسَلها إليها ، ويكونَ هو مَلِك هذه المدينةِ وتكونَ الجاريةُ ملكتها . فقَبل ذلك .

فزوجتْه من الجارية ، وطلبَتْ إحضار أهلِ المدينةِ وأخَذَتْ منهم البيعةَ لِلْمِلك الجديد ، فبايَعُوه ، وفرِحُوا بِه ، وبخلاصِهم من مَلِكتِهم الظَّالِمة الفاجرة . وطلبوا إليها أن تعيد المسْحُورين بالمدينةِ إلى صورتهم الأولى ففعلت .

وبعد أيامٍ وَدّع الملكُ بدر باسم وأسرتُه وحاشيتُه الملكَ عبد الله ، وتوجهوا إلى بِلادِهم .

وما وصلوا وأحس بهم أهلُ البلادِ حتى قاموا جميعاً على بكرةِ أبيهم يرحبُون بعودَتِهم ويُقيمُون الأفْراح والزينات .

وسُرَّ الأمراء والكبراء بعودةِ الملكِ بدر باسم ، فأوْلَموا الوَلائمَ ، وذبحوا الذبائحَ . وظلوا على ذلك عدةَ أيام لا تَسَعُهم الدنيـا من شِدةِ فرَحِهم .

(٩)

وعاد الملك بدر باسم إلى تَحَمُّلِ أعباء الحُكم ، وسياسةِ مَمْلكتِه بهمةٍ ونشاطٍ ، وقد أحس بلذّةِ العيشِ بينَ قومِه ، وبقيمةِ الحياةِ الحرَّةِ في بلادِه بجانِب شعبٍ يحبه ويفْتَدِيه .

وبمرورِ الأيامِ انتعشَتْ نفْسُه ، وابتدأ يَنْسى ما قاسَاه من شَدَائِد ومِحَن ويَطوفُ بمخيِّلتِه طيفُ الملِكة جوهرة سابحاً بذهنِه خلفَ الذكريات المريرَةِ ، فكان يشغَلُ نفسَه بالعملِ ليَصرِفَها عن التفكيرِ فيها ، ولكن خيالَ جوهرة كان دائمَ الإلحاحِ في ملازَمتِه ، فيعمل هو على إقصائه وطردِه ، ولكن سرعان ما يعاودُه ، فكان يعانِي ما يعانِي من تلك الحرْبِ القائمة بين عقْلِه وقلْبه .

وأخيراً لم يجِد بدر باسم بُدًّا من الإسرارِ إلى أمِّه برغْبَتِه في الزَّواج ولكنْ لم يجسرْ على أن يبُوح لها باسمِ التي يريدُ الزواجَ منها ، ولا أن يلمِّح لها بشيء عنها . بعد أن قاسَوا بسبَب فكرةِ الزواج منها

ما قاسَوْا ، وبعد أن جرَتْ عليهم ما جرَت من الأهوالِ والمصائِبِ .

وسُرّتْ جلنار لرغبةِ ابنِها فى الزواجِ ، وأفْضتْ إلى أمّها وأخيها وأهلِها بذلك ، ففرحُوا هم أيضاً ، وقالوا لبدر باسم :

نحن جميعاً يا بدر سنُسَاعدك على هذا الأمر .

وجدّ جميعُهم فى البَحث له عن الزّوجةِ الجميلةِ الصالحةِ ، كما أرسلتْ والدتُه بجواريها على أعناق العفاريت ، وقالت لهن :

لا تتركْن مدينةً ولا قصراً من قصورِ الملُوك من غير أن تَنظُرن جميعَ من فيه من البناتِ الحِسانِ .

فلما رأى بدر باسم اهتِمامَهم بطلَبِه ، وعنايَتَهم به ، ومسارعَتَهم جميعاً إلى إرضائِه ، تشجع وقال لأمّه :

يا أمى ، أنا لا يُرضِينِى أن أُسَبّبَ لكم المشَقة والتّعَب ، فإنى لا أريد إلا الزواج من جَوهرة بنت الملك السمندل ، فهى حقّاً جوهرة كاسمِها .

فلم تجد جلنار فائدةً من مراجَعته ومجادَلته ، فوافقَتْه على رأْيِه ، وأرسَلتْ من فوْرها من يَسْتَدْعى الملك السمندل ، وكان لا يزال أسيرا عنـد أخيها صالح الذى استردّ سلطانَ أبيه ، واستولَى على مَملكةِ السمندل ، وجَمع مَنْ فرّ من أفرادِ أسرتِه ، واتخذَهم أسْرَى ، فأودَعَهم السجْن ، وما كانت فيهم الملكةُ جوهرة ، فإنها كانتْ تعيشُ حرةً طليقَةً لم يُؤلمها ذُلّ الأسْر .

فلما حضر الملكُ السمندل من عند أخيها صالح — أرسلتْ إلى ابنها تطلُبُ منه الحضورَ لمقابلتِه ، وطلب يـد ابنتِه منه ، وكانوا معتقِدين أنه سيوافِق اليوم على ما رفَضه بالأمس .

فدخل بدر باسم على الملك السمندل ، ورحّب به وأكرمَه ، وطلب منه يد ابنته ، فقال له الملك السمندل :

يا ولدى ، ما هى إلا جاريةٌ لك .

ثم أرسل بعضَ أصحابه وأتباعِه إلى بلاده ، وطلب منهم استدعاء ابنته جوهرة ، وإخبارَها أن أباها عند الملك بدر باسم ، ابن الملكة جلنار البحرية .

وما مضى على ذلك إلا القليلُ ، حتى كانت جوهرة بين ذِرَاعى أبيها تسلم عليه وتعانِقُه ، وهو يقول لها :

يا ابنتى اعلمِى أنـنِى زوجتُك بالملك الهُمام، والأَسدِ الضِّرْغام ، الملك بدر باسم ، ابن الملكة جلنار . فهو مِنْ أحسنِ الملوكِ ، وأجملِهم شكلا ، وأرفعِهم قدراً ، وأشرفِهم حسباً ونسباً ، ولا يَصْلح لكِ إلا هو ، ولا يصلح له إلا أنتِ ، وقد يكونُ فى زواجِك منه تخليصٌ لنـا من الأَسْر ، وانطِلاقٌ من ربقةِ الاستعبادِ والذّل .

فقالت جوهرة : يا أبِى ، أنا لا أستَطِيعُ أن أخالفك ، فافعل ما تُريد ؛ وإذْ أنّكَ يا أبى قبلْتَه ، ورضيتَ عنْه ، فأنا لَه الخادمةُ المطيعة ، والأَمَةُ الأمينة .

وعند ذلك أحضَرُوا القضاةَ والشهودَ ، وعقدوا عَقْدَ الملكِ بدر باسم ابن الملكةِ جلّنار البحرية على الملكة جَوْهرة بنت الملك السَّمَنْدل .

وأقيمت الأفراحُ ، ونُصِبت الرايات ، ودقَّت البشائر ، ونُحِرت الذبائح ، وعَزَفت الموسيق ، ولعِبت الخيول ، وزَغْرَدت النساء ؛ وعَمَّ الفرح والسرور .

وشهِدت البلادُ أياماً كانت حَقًّا من فَلَتاتِ الزمن ، وإغفاءات القَدَر . و نالت فى عهدِ هذَيْن الملكيْن العادليْن، المؤمِنَيْن بأن لشعْبهما حقًّا عليهما ، وأنَّ سعادَتَهما فى سعادَتِه ، وأن شقاءهُما فى شقائه — نالت عَهْداً من الرَّخاء واليُسْرِ ، والسَّعادة والهناء ، والطُّمأنينة والأَمْن . فَظَلَّت تُرَدِّدُ ذِكرَه الأجيال .



(حسن البصری وأخوه)

حسن البصرى

(١)

زعمُوا أنه كانَ فى غابرِ الدهورِ بمدينةِ البَصرةِ تاجرٌ أسبَغ اللهُ عليه نعمةَ الغِنَى ، فبسطَ رزقه وكثُر مالُه . وكان له ابنانِ دَرجَا فى ظلالِ الخفضِ ، ووَارِفِ النّعيم . ولما شارفَا عهدَ الشبابِ أو كادَا . انتهى أجلُ أبيهما فماتَ . وكان الولدَان صالِحيْن ، فجهزّاهُ ودفَناه ، وأقامَا له مأتمًا عظيمًا على عادَةِ أهلِ البصرةِ فى ذلك الزمانِ ، وأنفقا على مَأتم أبيهما مِقداراً كبيراً من المالِ الذى ورثاه عنه .

ولما اطمأنَّ بالوالدِ مَقَرّه، ومكّنَتْ إلى ولديه الحياةُ من بعدِه، رأيا أن يقُومَ كلٌ منهما على نَصِيبِهِ من مَالِ أبيه، فقَسَماه بينَهما قسمةً عادلةً وأخذا فى تنمِيتِه واستِثماره، فاتَّجر أوّلُهما فى النُّحاسِ، أما الثّانى واسْمُه حَسَن البَصرى فكان صَائغاً، واتَّخذ كلٌ مِنهما محلاً فى سُوقِ المدينةِ، يُباشِرُ فيه عملَه، ويكسبُ رِزْقَه.

وذاتَ يومٍ كان بَيْنَ المارِّينَ على حسن البصرى رجلٌ أعْجمىٌ، يحملُ فى يدِه كتاباً عتيقاً، فوقَف على بابِ الدُّكانِ، ينظُرُ إلى حسن البصرى حِيناً، وينظُرُ فى كتابِه حِيناً آخرَ، ثم جلَسَ على مِصطَبَةِ الدُّكان، ووقفَ النَّاسُ ينْظُرون إلى حسن البصرى ويعجَبون من عَريضِ إهابه، ورَفاهَةِ شَبابِه، ووَضِيءِ طلْعتِه، واتِّساقِ قَوامِه، فكانَ ينظُر إليهم ولا يَقُولُ شيْئاً.

ولما طَفَلَت الشَّمْسُ، وانْقَشَع الزِّحامُ، وأقْفَرَ الدُّكانُ من النَّاسِ، وقلَّ عددُ السابلةِ، تقدَّمَ ذلك الأعْجمىُّ إلى حسنٍ وقال: يُخيَّلُ إلىَّ ياوَلدِى العزيز أنَّكَ وَليدُ يَسارٍ ونِعمةٍ، وسَليلُ جاهٍ عريضٍ وعِزَّةٍ، وأخْوفُ ما أخافُه عليكَ، أنْ يقدرَ عليكَ رِزْقكَ فتذْوِى نَضْرتُك، ويذهب سعْدُك، وينْكفِئَ حُسنُك، ويَتطامَن جاهُكَ، وإنِّى — كما تَرى — شيخٌ مُعمّرٌ، وليسَ لى ابنٌ يخلُفُنى مِن بَعدى فى صنْعتى، الّتى لا يَعلمُها أحدٌ غيرى، والتى تَفيضُ بالقَناطِيرِ المقنطَرةِ، من الذهبِ والفِضّةِ، وما طوّعتْ لِى نَفْسِى أن ألْبَىَ إلحافَ الناسِ فأُعلِّمَهم إيَّاها،

ضنًّا بها عليهم ، واحتجازاً لها دونهم ، ولكنَّ قلبي أشرقَ بحبِّكَ ، وخفقَ بالحُنوِّ عليكَ ، حُنوًّا جعلَكَ منّي في مكانِ البُنُوَّةِ ، وما يمنعكَ أن تكونَ ابني العزيز ، فأقفكَ على خبايا تلك الصنْعةِ ، وأجعلَ بينكَ وبين الفقرِ سَدًّا ، وأحفظ عليكَ ما وَرِثْتَه من عزٍّ وجاه ، وطيبِ حياةٍ ، وأريحكَ من صنعَتِك هذه ، التي لا تجني منها إلاَّ شررَ اللهبِ وحرارَتَه ، والنَّفخَ بالكِير ومتاعِبَه ؟! فانبسطَ حسَن البَصرى وقال : ومتى ذلك يا والدي ؟ فقال الأعجميُّ في أسلوبٍ يُطمِعُ الشابَّ فيه ، ويجعلُه يتهالك شوْقاً إلى ما يُبديه : غداً آتيكَ ، وأحيلُ هذا النحاسَ الذي عندكَ ذهباً ، ونهضَ مُسْرعاً ، وسلَّم مستوْدِعاً ، على أن يأتِيَ غداً مبكراً .

ذهبَ حسنُ البَصرى إلى أمه بعد أن أغلقَ دكانَه ، فقدَّمتْ له عشاءه ، وجلس يأكلُ . ولكنها رأتْه شارِدَ الذهنِ مُفكِّرًا . فقالت : مالِي أراكَ على غيرِ ما عَهِدْتُك ، ونقيضِ ما اعتَدْتُه من مَرَحِك ؟ حذارِ ياوَلدِي أنْ تُسيغَ للناس كلاماً ، وتحلَّه من نفسِك محلَّ الإيمانِ والعقيدَةِ ، دونَ تمحيصٍ منْكَ يميزُ بين خيرِهِ وشرْه ، ويجنِّب نفعه عن ضرِّه ، ولا سيَّما كلام الأعجام الذين أحبُّوا المالَ حبًّا جمًّا ، فعَمُوا مِنْ أجْلِه عن المُثُلِ العُليا ، ونفَذُوا إليه مِنْ كلِّ سبيلٍ ، وركِبُوا له كلَّ خطيئةٍ ، فاعتَمدُوا على الغشِّ والخديعةِ ، واتخذوا صِناعة الكيميا وسيلةً يأكُلون بها أموالَ الناس بالباطِلِ ، لا يَرْقبُونَ في ذلكَ إلاًّ ولا ذمَّة . فقال حسن : قد يكونُ ذلك صحيحاً إذا كانَ انقِضَاضُ الأعجامِ على أحدٍ مِنْ ذوي الثراء العريضِ ،

فإن كان ذلك على فَقِيرٍ مِثْلِي ، فَمِنَ المسيرِ أن تَهمَه مَكْرًا وخديعةً ، وماذا عِندَنا من المالِ حتى نكونَ مطمع هؤلاء الأعجامِ أو غيرِهم ؟ ! ولا أكتمُكِ يا أمّي شيئًا من أمرِي ، فقد جاءني اليوم أعجميٌّ ، تَبدُو في وَجهه مخايلُ الصلاحِ والبرِّ ، ووَعدَني عونًا على الغِنى والرّزقِ الوفيرِ ، وبدا من حَنانه وشَفقتِه ، ما جعلَني منهُ في غَيْرِ حذَرٍ ومخافَةٍ . فغُمَّ عليها الأمرُ ، وعقَد لسانَها قولُه ، وكظَمَتْ خوفَها وحيرتَها في صَدْرِها ، وأوَى كلٌّ منهما إلى مَضْجعِه ، دونَ أن يأخُذه نومٌ ولا سِنَةٌ ؛ أما الأمُّ فلأنّها تُشفِقُ على ابنِها ، وتخشَى له شِقْوةَ العُقبَى ، وأما ابنُها فلتَعجُّلِه اللقاء ، وشَغَفِه بما منّاهُ الأعجميُّ من مَديدِ الثراء .

وما أسْفر الصبحُ ، وانشقّ ظلامُ الليلِ عَنْ نَهارٍ تجلَّى ، حتى نهض حسنٌ مِن مَضْجعِه ، وكانَ بعدَ قليلٍ في دكانِه ، مرتقِبًا الأعجميَّ الذي ما لَبِث أن حَضرَ ، فقام ناشِطًا إلى استقبالِه ، وأكبَّ على يدِه يَرُومُ تقبيلَها ، فأبَى ذلك عليه وقال : أوْقِد النارَ يا وَلَدِي ، وضَع البوْتقةَ فوقَها ، وقَطِّعْ هذا الإناء النحاسيَّ قِطعًا صغيرةً ، وألقِ بها في جوْفِ البَوْتقةِ .

ولمّا حَالت القِطعُ إلى سائلٍ نحاسيّ ، أخرجَ الأعجميُّ من طياتِ عِمامتِه ، ورقةً مُطبَقةً على ذَرُورٍ ناعِمٍ ، أصفرَ اللّونِ ، ووضع مِنْه في البوتقةِ مقدارَ نصفِ دِرهم ، واستمرّ حسنٌ يُوقِدُ النارَ ، وينفُخُ بالكِير ، ويقلبُ السائلَ ، حتى صار النُّحاسُ سبِيكةً من الذّهبِ ، فاختبَرَها حسنٌ



(الأعجمي يحيل النحاس ذهباً)

فألفاها ذهباً خالصاً ، فكاد يَطيرُ فرحاً ، وجرى فى دَمِه أنه عثر على كنزٍ يَعصِمُه من الفقرِ أبدَ الآبدِين .

اعتدلَ الأعجمىُّ فى جلستِه مزهُوًّا ، وأمرَهُ أن يبيعَها فى سُوق الذهبِ بالمدينةِ ، فباعَها بخمسةَ عشرَ ألفِ درهمٍ ، وجرى بها إلى أمِّه ، ليُرِيها كيفَ صدَق الأعجمىُّ وأخلصَ ، فما كانَ هذا بباعثٍ فى قلبها اطمئنانًا ، ولم تحسَّ من نفسِها إلا انقباضا ، وأطافَتْ بها حيرةٌ واجمةٌ ، فنطقتْ قائلةً : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العظيم ، فلوَى حسنٌ وجهَه إلى دكَّانِه ، وأخذ معه وعاءً نحاسيًّا كبيراً ، ووضَعه بين يَدَى الأعجمى الذى كان ينتظِرُه ، والذى كأنَّه أدركَ ما يُرِيد ، فقال :

ماذا تَبغِى من هذا يا ولَدِى العزيز ؟ فأجابَه : نُحيله إلى سبائكَ من ذهبٍ ، فضربَ الأعجمى يداً بيدٍ وقال : لا يَزالُ الشبابُ فى حاجةٍ إلى خِبرةٍ مُبَصِّرةٍ ، وحنكةٍ ملْهِمةٍ ، كيفَ تطيعُ أطماعَك ، وتنزِلُ إلى سوق الذهبِ فى يَومٍ واحدٍ ، بسبيكتَيْنِ ذهبيتَيْنِ ؟ ألا تخشَى أن تُساق إلى الحاكِم بهما ، وتُسأل عنْهما ، فتُفسِدَ علينا أمْرَنا ، وتُودِى بحياتِنا ؟ إذا علَّمْتُك يا ولَدى العزيز هذه الصنعةَ فلا تحاوِلْ الانْتِفاع بها إلا مرةً واحدةً كل سنةٍ حتى لا يفْتضِح أمرُك ، ولا يعرفَ أحدٌ عنكَ شيئا . فاطمأنَّ حسن وصدَّقَهُ ، وقال : لا تُؤاخذْنِى بما فعلْتُ ، ولا تبْخلْ على ابنك بما أوتيتَ من حِكْمةٍ وبُعدِ نظرٍ ، ثم طلبَ إليه أن يقومَ بتعليمِه ، فسيلْقَى منه إقبالا ونَجابةً وحِذْقا . فقال الأعجمى : يبدُو لى

يا ولدِى أنكَ لستَ الآنَ من أهلِها ، ولم تَنضجْ بعدُ لتَعَلُّمها وحِذْقِها ، أنَسِيتَ يا ولَدى أنّ هـذه الصنعةَ يُحرِّمها القانونُ ؟ ولهذا لا تُعلَّمُ على قارعةِ الطريقِ ، فى مثلِ مَكانِنا هذا ، وإلّا ذاعَ الأمرُ وشاعَ ، وطرقَ آذانَ الحاكمِ ، فجَدَّ فى طلبِنا ، وزَجَّ بنا فى غَيابةِ السجنِ ، أو أطاحَ منّا الرءوسَ ، وأزهَق الأرواحَ . إنْ كنتَ حَريصاً على تعلُّمِها فلْنَبْتَغِ مكانا لا تمتدُّ إليه الأعينُ ، ولا تسترقِ منه الآذانُ ، ويحسنُ أن يكونَ منزِلِى ، ففيهِ وِقاءٌ وحمية ، فقالَ حسنٌ : لا زلتَ مصدراً لكلِّ حزمٍ ورُشدٍ ، فوربِّ السماءِ والأرضِ إنهُ لحقٌّ مثلَ ما أنّكَ تنطِق ، فهيّا بنا إلى هُناكَ .

وبينما هُما يَسيران إلى منزلِ الأعجمى ، ذكر البَصرىُّ وصيةَ أمِّه ، وتحذيرَها إيّاه الأعاجم ، فتباطأَ فى المشيِ ثم وقف ، وأطرَق برأسه إطراقةَ حَيْرةٍ وتَرددٍ ، فأدركَ الأعجمىُّ أن المخاوفَ ساورَتْهُ : فقال : إن كنتَ فى لَبْسٍ من أمرِى ، وتخشَى أن تذهبَ إلى بَيتِى ، فلْنَذهبْ إلى بَيتِك ، فإنى لكَ مُخلِصٌ أمينٌ ، وما أردتُ لكَ إلا الخيرَ المبين . فكانَ هذا القولُ على حسَنٍ بَرْدَ السلامةِ ، وركبَا سبيلَهُما إلى دارِه ، وهُناكَ أفضَى إلى أمِّهِ بكلِّ ما جَرى ، وكانت بَيْنَ طيات المنزلِ ونواحيه ، تقومُ بشأْنِها فيه .

دخل الأعجمىُّ الدارَ بعدَ أن أذِنَ له ، وأحضَر حسنٌ من السُّوق طعاماً لهما ، ووَضَعه أمامَهما وجلسَ قائلا : هـذا طعامٌ نأكُلهُ معاً ،

ليكونَ عهد أمانٍ بيننَا، ورِباط وَفاءٍ، ومَوْثِقَ إخْلاصٍ، ليَحُلَّ غضَبُ اللهِ ومَقْتُه، على مَن يَنْقُضُ العهْدَ، ويخونُ الصُّحبةَ؛ فابتَسم الأعجَمى ابتسامةً طويلةً صفراء، وقال: ما حُبِّبَ إلىَّ فى دُنيايَ مثلُ عهُودِ الأمانِ وتَوْثِيقِها، ومواثيقِ الأُخوَّةِ والصداقةِ وتوكيدِها، وقد أحسَنْتَ بذلكَ صُنْعاً، حتى لا تكونَ جماعتُنا على قَذَى، ولا يُشْغَلَ أحدٌ منا بالحذَرِ من أخيهِ، وجَعلَا يُسَجِّلان العهدَ لُقمةً لقمةً، حتى امتلأ بطنَاهُما طَعامًا، ونفْسَاهما مَوْثِقًا وأَمْنًا وسَلَاماً، ثم أبْدَى الأعجمى رغبَتَه أن يُحْضر حسنٌ بعضَ الحلْوَى، يجعلانِهِ خِتام طعَامِهِما، تفاؤلًا بذلكَ المستقبلِ الحُلْوِ الفَيَّاضِ بالخيْرِ والنَّعِيمِ.

أحضر حسنٌ عشْرَ قِطعٍ من الحلْوَى، وجَلسا يأكُلانِ، وفى أثْناء ذلك خالَسَهُ الأعجمىُّ نظرةً، ودَفَن قطعةً صغيرَةً من شىءٍ كانَ قد أعدَّهُ، فى قِطعَةٍ من القِطَعِ وقال: لقدْ عزمتُ يا ولَدِى أنْ أُزوِّجَك من ابنَتِى، لتحظَى بجمالِها ودَلِّها، وتَعيشا بصنعةِ أَبيها فى غِنًى واسعٍ وثراءٍ عريضٍ. تفضَّلْ يا ولدِى هذه القِطعةَ، فإنَّا معشَرَ الآباءِ لا نفْتَأُ نخُصُّ أبناءَنا بأحسنِ الأشياءِ، ويَبْدو لى أنها أحسنُ القِطعِ شكلاً وَمذَاقاً فتناوَلها حسنٌ وأكَلَها شاكِراً مَسْروراً، وما كادَتْ تستقِرُّ فى بَطْنِه حتى خَدِرَ وسقَط على الأرضِ فى ذُهولٍ وغَشْيةٍ.

فَرِحَ الأعجمىُّ، فنهض إلى الشابِّ وأوْثقَه بحبالٍ كانتْ معَهُ، ووضَعهُ فى صُنْدوق كانَ بحجْرتِه وأحكَمَ إغلاقَه. وجمعَ ما وَجدَه من

مالٍ ، وأحضرَ من السُّوق حمّالا ، فحَمَل الصُّندوقَ إلى مركبٍ راسٍ في انتظارِ الأعجميّ ، وهناكَ نقَد الحمالَ أجرتَه ، واستَقلّ المركبَ بصُندوقِه ، وأمَر البَحارةَ بالإقلاعِ والسّفرِ ، فقدْ بلغَ مأربَه ، وبعدَ بُرهةٍ كانَ المركَبُ في غَيبٍ من مسالِكِ البَحْر .

استَبطأتْ الأم ابنَها حسنا ، إذ لَمْ يدخُلْ عليها يأكُلُ ما أعدّتْه له من طَعامِ العشاء ، فتَفقّدتْهُ في الحُجْرةِ ، وفي مناحِي البيتِ ، فلمْ تجِدْ له رِيحا ، فأيقَنَتْ أن سَهْم الأعجَمي نفذَ فيه وتعدّاهُ إلى صدْرِها فاستَقرّ في نواحِيه ، فصاحَتْ صيحاتٍ حزينةً متعاقبةً ، اهتزّتْ لها صُدُور جيرانِها ، فأهرعُوا إليْها فألفَوْها في حُمّى حزْنِها ، غارقةً في دُموعِ بكائِها ، ووقفُوا على حقيقةِ أمْرِها ، فأفزَعَهُم هَولُ الحادِثِ ، وأخذُوا يخففُّون من مُصابِها ، داعِين اللهَ أن يَكونَ اللقاءُ قريباً ، والعودُ أحْمَد ، ثم انصرفُوا .

أمّا أمُّ البَصري فقد استَيأسَتْ من اللّقاء ، فابتَنت في بيْتِها قبْرا ، كتبتْ على صدرِهِ اسْم ابنِها وتاريخَ فقْدِه ، وتعهدَتْه بزِيارتِها ، وإمطارِه مِدْراراً من دُموعِها ، وعاشتْ كاسِفةَ البَالِ ، في أسوإ حالٍ .

(٢)

كان الأعجمي — واسْمه بهرام — مجوسيًّا ، يُضمِرُ المسلمين حقْدًا وضَغينةً ، وغدْرًا ومَكيدة ، وقدْ أمْعن في اللُّؤمِ والإيذاء ، فكان كلبًا

كلباً جُرِّدَ من الوفاء ، له كل عام واحدٌ من المسلمين ينصبُ له شركَ الخديعةِ ، حتى يقعَ فى حُبالتِه ، ويجرّهُ إلى مطلبِه ، وهناكَ يُجرِّعُه غصصَ الموتِ قرباناً لضالّتِه ، وما يَنْشدُ من مالٍ ومادّة .

ولما غابَ المركب فى مَتاوِيه البَحْرِ ، أخرجَ الأعجمى حَسَناً من الصندوقِ ، وأنشقَه خَلاً ، ووضَع فى أنفِه ذَرُوراً ، فعطَسَ ، وألقَى ما فى جَوْفِه ، وكان « بنجا » مُخدِّرا ، ولما أفاقَ وجدَ نفسَه فى ذلك المكانِ والأعجمى أمامَه ، تتقاطَر الخيانةُ من أعْيُنِه ، فعلم حسنٌ البصرى أنه غَدَر به ، وانتظَر ما يَجرى به القَضاء ، وجعلَ يقول فى نفسِه : لا حَولَ ولا قوةَ إلا بالله العظيم ، إنا لِله وإنا إليه راجعون ، اللهم الطُفْ بى فى قضائِك ، وصَبِّرْنى على بلائِك ، يا ربَّ العالمين ، ويا مُجير المستجيرين ، وعونَ الضعفاء والمظلومين ؛ ثم التَفت إلى الأعْجَمى وهو لا يزالُ مُوثَقاً بحبالِه ، وقال : كيفَ صنَعتَ بى هذا ؟ ألمْ نأكُلَ خُبْزاً ومِلْحاً معاً ، كانا لنا مَوْثِق أمنٍ وسلامٍ ، ووشيجَة صدقٍ ووفاء ؟ فقال له : خَرِسَ لسانُك ، وغابَ رشادُك ، وضللتَ فوق ضَلالك ، وهل يَرْقُبُ مِثْلى فى مِثلِك من المُسْلِمين إلاً أو ذِمّة ، لقد قَتلتُ من أمثالكَ الأغْرار ألفاً إلا واحدا ، وسَيتمّ الألفُ بفَنائِك ، وحقّ النّارِ والنُّورِ ، والظلّ والحَرورِ — ما كُنتُ أظنُّ أن تكونَ لى صَيْدًا ، ولا لِشِباكِ خداعِى غَرضاً ، ولكنَّ سِرَّ النارِ أوقعكَ فى حُبالتى ، ومَكّنَنى من أسرِك وحبْسِك فى دائرةٍ من إمْرَتى ، وسأجْعلكَ قُرباناً لها ، حتى أنالَ رِضاها ،

فقال حسنٌ : وإن للخبز والملح سرّا ، فلننظر أى السرّين أظهر وجوداً ، وأصلح ثمراً وأبقى أثراً ؟!! والله تعالى يتولى الصالحين .

فصرخ الأعجمى صرخةً ، هزت فى البصرى جوانبَ نفسه ، وأنحى عليه ضرباً وعضًّا ، وقال : إنْ كنتَ تعبُد معى هذه النارَ ، نجّيتك ممّا أنتَ فيه ، وقاسمتُك مَالِى ، وزوجتُك ابنتِى فقال حسنٌ ، فى قوةِ اليقين : افعلْ ما تشاء ؛ فلنْ أتركَ عبادة ربِّ الأرضِ والسماء ، وخالق النّار والنُّور ، والظلِّ والحَرُور ، فاخسأ فى باطِلِك ، ولا تخاطِبْنى فى أمرٍ من فِتْنَتِك ، فلنْ يُصيبَنا إلا ما كتَبَ اللهُ لنا ، واللهُ خيرٌ حافِظاً وهو أرحمُ الراحِمين ، وما كانَ لى عليكَ مِنْ سلطانٍ إلا أنْ أذكّركَ بعهدِ السلام ، ولك بَعْدَ هذا تقريرُ المصير ، وليس لنا دُونَ الله مِنْ وَلِيٍّ ولَا نصير .

حركَ هذا القولُ فى نفوس البحارة كامِنَ العطف الفطرى ، والجاذبية الإنسانية ، فكان له فيهم أثرُه الصالح ، ولكنهم لا يزالون فى جُحُودِهم ، يرتقِبُون المَصير .

أما بَهرام المجوسىُّ فقد دأبَ على تعذيبه ثلاثةَ أشهرٍ كاملة ، والبَحْر يحمِلُهمْ فوق صَدْرِه ، وينظُر إليهم نظرةً ملؤها العَجبُ والدهشَةُ ، حتى غضب غَضْبةً صاخِبة ، فثارتْ أمواجُه ، وانطلقَتْ أعاصيرُه ، وأظلَمتْ أجواؤه ، فقالَ البحارة : هذه غضبَةُ الطبيعةِ من أجل هذا الشابِّ البرىء ، وما كانَ لنا أنْ نكونَ أقلَّ من الجمادِ إحساساً وعَطْفاً ،

ونخوةً وإباء ، ثم هجَمُوا على غِلمانِ المجوسىِّ وعبيده ، الذين اتخذَهم أداةَ تعذيبٍ ومحنةٍ ، فقتلُوهم شرَّ قتلة ، وألقَوا بِهِم فى البَحرِ ، استدراراً لِعطفِه ، وتنفيذاً لحكْمِه ، البادِى فى غضَبِه ، والناطِق بفصيحِ ثَوْرته : أن اضرِبُوا على أيْدِى الظالمِين ، وأذيقُوهم بلاء العذابِ المهِين .

ارتَعد المَجُوسِىّ رُعْباً ، فأسرعَ وفَكَّ وثاقَ الغُلام ، واعتذَر بالتى هِى أحْسن ، فَرفِق به ، وعامَله بالحُسْنَى ، وندِم على ما اجْترحَه ، ووَعدَه أن يُعلِّمه الصنْعةَ ، ويردَّهُ سالماً إلى بلدِه ، فهدأت الطبيعةُ ، وابتَسمت عنْ جوٍّ مشرقٍ وضاء ، وريح رخاء ، وصفحةٍ مبسوطةٍ للماء .

وشكرَ حسنُ البصرى للبَحارة ومساعِديهم جميلَ صنيعِهم ، وحَمِدَ اللهَ كثيراً ، ثم التفتَ إلى المجوسِىِّ قائلاً :

لقد تخطَّيتَ بسيرِك هذا ثلاثةَ أشهرٍ أو تزيد ، فمَتَى تصبِحُ على إقامة ؟ وأين تكُون ؟ فقال المجوسى : إنَّا ذاهِبُون إلى جبَل السحابِ ، حيثُ الإكسيرُ اللازمُ لصِناعتِنا ، وأقسمَ له بما يَعبُد من دونِ الله ، أنه لا يَخاف بعد ذَلك بأساً ولا ضنْكا .

وبعد مسيرةِ ثلاثةِ أشهرٍ أخرى ، رسا المركبُ على ساحلٍ كثُرَ فيهِ دِقاقُ الحصى المختلفَة الألوان ، من أبيضَ ناصع ، وأصفرَ فاقع . وأحمرَ قان ، فقال المجوسى : قم بنا يا حسن ، فقدْ وصلْنا إلى الأرضِ التى نَبْتغيها ، ووَصَّى البحارة أن يَنْتظرُوهما حتى يَعُودَا .

مشى الأعْجَمىُّ وحسنُ ، حتى غابَا عن أعْينِ الشاطِىء ، فأخْرجَ

بهرامُ من جَيْبه طَبْلاً نحاسيًّا صغيرا ، وسيرًا مجدولاً من الحرير ، عليهِ طلاسمُ من ذهبٍ ، فجعلَ يضربُ الطبلَ بالسَّيْرِ حتى اغبرَّ الجوُّ ، وعقدَ الغُبارُ فى نواحيه سحباً كثيفةً ، فامتُقِع لَونُ حسن البصرى ، وعَلَتْ وجهَهُ سحابةٌ صفراء من هَولِ ما رَأىَ ، وتجاذبَتْهُ الهواجسُ المفزعةُ ، ولكن المجوسىَّ طمْأنَه قائلاً : ستنْجلِي هـذه الغبرةُ عن ثلاثة جيادٍ ، وستتخذُها مطايا ذُلُلا إلى حيث نُريد ، وما كادَ المجوسى يأتى على آخرِ قولتِه ، حتى انقشعَت سُحُبها عن ثلاثةِ جيادٍ ، هنَّ قيدُ الريحِ العاصِف ، وأسرعُ من البرقِ الخاطِف ، فركبَ المجوسىَ واحداً منها ، وركبَ حسن ثانيَها ، وأوثقُوا رباطَ أمتعتهما فوقَ ظَهر الثالثِ ، واتخذا سبيلَهما إلى جبَل السحابِ المنشودِ سَرَبًا .

وبعد مسيرةِ سبْعةِ أيام ، رأيا قُبَّةً على عمُدٍ أربعةٍ من الذهبِ ، فى أرضٍ خلاء ، فأويا إليها . وجلسَا يأكلانِ ، ويأخُذانِ حظهما من الراحةِ ، فحانَتْ من حسنٍ التفاتَةٌ ، التَقى بصرُه فيها بقَصرٍ مشيدٍ من قواريرَ ، مموَّهٍ بالذهب ، مُحلًّى بالجواهِر الكريمةِ ، ينطِقُ بالعظمةِ والعزةِ وخفضِ الجناحِ وبسطةِ النعمة ، فسأل الأعجمى عنه ، وطلبَ إليهِ أن يَدخُلاه ، عسى أنْ ينالاَ منه خيراً ، ويجدا فى ظِلالِهِ أمْنا ، فقال بَهرام : لا تحدِّثنى فى شأنِ هذا القصرِ ولا ترهِقْنِى من ذِكرِه عُسْراً ، فإنَّ فيهِ أعْدائِى؛ ولى معَهُ مسألةٌ ليسَ هذا أوانَ ذِكرِها ، فدعْنا مِنه ، ولننصَرِفْ إلى أمْرِنا ، ودَقَّ بهرام الطبْلَ ، فأقبلت الجياد ، فركبا واستأنفا المسير

سبْعةَ أيامٍ ، وفى اليوم الثامن قال بهرام : ماذَا ترَى الآنَ يا حسن ؟ فقال : إنى أرى سحاباً عالياً ، يملأ الأفُق من المَشرِق إلى المغْرِب ، فقال : بَهرام : ما هو بسحاب كما تزْعمُ ، ولكنَّه جبلٌ طالَ وارتفعَ ، حتى جَاوزَ السُّحبَ عُلُوًّا ، وإن السائِرَ على صَهْوته ، يكونُ السحابُ من تَحتِه ، وفوقَه حاجَتنا التى جئتُ بكَ من أجلِها ، ولنْ تُقضَى إلا على يديك ، أيها الأَمِين العزيز . فحُبِسَ لسانُه ، وغمُت السبُلُ أمامَه ، ثم قال فى غَمْغَمةٍ مضطربة : بحقٍّ ما تعبُدُه أنتَ إلاَّ أبَنْتَ عنْ قَصدِك ، وأعلنْتَ ما يُكنُّه قلبُك ، فقال بهرام : يا ولدى العزيز ، إنّ صنْعةَ الكيميا لا تَصِحّ ولا تنفعُ إلا بحشيشٍ يَنبُتُ فوقَ هذا الجبلِ ، فإذا أحضرتَ هذا الحشيشَ ، فستعرفُ كلَّ شىءٍ عَنْ هذهِ الصَّنعة ، فساوَرَ الريبُ حسَنا البصرى ، وظنّ بقوله الظُّنُونَ ، وذكر أمَّه ووطنَه ، ووصيّتها ، وإعراضَه عنها ، طامِعاً مَخدُوعاً ، ثم رَكن إلى الله تعالى ، داعِياً أن يُنفّس كُرْبته ، ويكشِف عنه الضُّرَ الذِى أَلمَّ به ، وما زالاَ سائرين حتّى كانا فى أسفَل ذلك الجبلِ ، فلمح فيهِ قصْراً عظِيما ، على مَدّ البَصر ، فسألَ عنه المجوسىَّ ، فقال : إنَّه قصرُ المَرَدَةِ والشياطِين والغيلان ، وهو مِنّا الآن فى مكانٍ سحيقٍ ، فلننزل هُنا ، حتى نكونَ فى مأمَنٍ .

وذَبَح المجوسِىُّ جوادا ، وسلخ جلدَه ، وقال ستَدخلُ فى هذا الجلد يا حسن ، ومعَك زادُك وشرابُك ، وسكينٌ ماضِيةٌ ، وسأخيطُه عليكَ ، وأطرحُك فى الخلاء ، فيأتِى عُقابٌ يحمِلُك إلى قِمةِ هذا الجبَل ، فإذا حطَّ

بكَ هناك ، فشُقّ الجلدَ بالسكّينِ ، واخرجْ منه سَالماً ، وهناكَ تحتشاكَ العِقْبانُ والطيورُ ، وتطيرُ هرباً ورغباً ، وإذ ذَاكَ تُنادِينى فأستَجيب لك ، وأدلّك على ماتفْعلُه .

ولما كان حسنٌ على قمّةِ هذا الجبلِ ، ونادى الأعجمىّ فأجابه ، فرحَ فرحاً عظيماً، وقال : يا حسن ، اجمع ستّ حزَم من الحشيشِ الذى عندَك ، وارمِ بها إلىّ ، وبعد ذلك أخبركَ ما تفعَلُ ، لِتعودَ سالماً . ولما ألقى إليه الحشيشَ التفتَ بهرامُ إليه قائلا : لقد بَلغتُ بكَ مأرَبى ، ونلتُ بُغيتى ، ولا أحفِلُ الآن بكَ ، فألقِ بنفسِك من أعلى الجبلِ ، لتصلَ جثةً هامِدةً ، أو امكُثْ عندَك حتى تموتَ من الجوع صبْرا ، أو إن استَطعْت أن تَبْتَغِى نفَقاً فى الجبل ، أو سُلّماً فى السّماء — فافعلْ ، ولعنَة النارِ عليكَ أيها الغِرّ الأحمقُ ، والجاهِلُ الأعمى ، وهــــذا فِراقُ بَينى وبَيْنك . فجعلَ حسنٌ البصرىّ يُحوْقِل ويَسْترْجِـع ، ثم قال : لقد مكرَ بى هذا المجوسِىّ اللعِينُ ، وقد حُمّ القَضاء ، وقُضِى الأمرُ ، وليس لِى إلا ربُّ العالمين وليّا ، وحَامِياً ونَصيراً .

تلمّس حسنٌ فوقَ الجبل مَخرجاً ، فجعَل يمشى هُنا وهُناك ، وينظُر هنا وهناك ، فرأى رُفاتاً وجُثثاً هامدةً لأناسٍ كثيرةٍ ، فقال : لا حَول ولا قوةَ إلا بالله ، إن لمْ يَتداركْنِى اللهُ بلُطفِه ، فسيكونُ مصيرى مصيرَها ، وعُقْباى عُقباها ، ثم رأى فيما رَأى إلى الجانِب الآخَر من الجبل ، بحْراً فَسِيحَ الجنَباتِ ، أزرقَ اللون ، متلاطمَ الأمواج ، يُرْغِى ويُزْبِد ، كأنه

فى معركة تحمى وطيسُها ، وقامت على سُوقِها ، فجلسَ يرطبُ لسانَه ، ويطمئنُ فؤادَه ، بتلاوةِ ما تيسّر ، له من القرآن الكريم ، وسألَ الله تعالى أن يُعجِّل أحدَ المصيرَيْن : إمّا ميتةُ الشهداء ، وإما نجاةٌ تكشِفُ عنْه هذه الضَّراء ، وصلّى على نفسِه صلاةَ الجنازَةِ ، ورمَى بجسْمِه فى هذا البَحْر العظِيم ، وبنفْسِه بينَ يدَى ربِّهِ العليمِ الحكِيم . فوثبَتْ إليْه الأمواجُ ، تَتَلقفهُ فى سبِيله إليْها ، لتحمِلَه إلى البحر فى رِفقِ الأبُوة ، وحنان الأمُومة ، ثم إلى البرّ سالماً ، لمْ يصِبه مكروهٌ أو أذًى ، وهكذا :

إذا ما أرَاد اللهُ خــيراً بعبْدِه　　هداهُ بنورِ اليُسْرِ فى ظلمةِ العُسْرِ

خرجَ حسن البَصرى إلى البرّ حامداً لله رحمتَه ، شاكراً له أنعُمَه ، فمشى فى مناكِب الأرْضِ يبْتَغِى من فَضلِ الله ورِزْقِه ، فإذا هو أمامَ القصر المُمرَّدِ ، الذى كانَ قد سأل المجوسىّ عنه ، فأحْجَم عن الإجابةِ ، وأفهمَه أن بِه أعداءه ، وأنّ له معه قصةً ليس هذا مجالُ ذكرها .

ودخلَ القصر مَدفُوعاً بأمله وجوعه وإيمانِه بالله وليِّه ونصيره ، عسى أن يجدَ فيه من يُطعِمُه من جوع ، ويؤمِّنهُ من خوْف ، ويجعلَ له مَخرجا ، وما احتواهُ مدخلُ القصر ، حتى وجدَ بِنْتيْن جميلَتَيْنِ تلعبان بالشطرنج على مصطبة فى دِهليزِه ، وما رأته إحداَهما ، حتى نهضَتْ على استِحْياء إليه ، فحَيّتْه تحيةً قوّتْ فى نَفْسِه أملَه فى النجاةِ ، وسارتْ به إلى أُختِها ، وقالت لها : لعلّ هذا المسلم المِسكين ، الذى جاء به بهرامُ المجوسىُّ هذا العامَ ، فأعْجلَها عَن الإجابة قائلاً : أنا ذلكَ المسكينُ .



دخل القصر مدفوعاً بأمله وبجوعه

وفى لمح البصر أو هو أقربُ ، مرّ ماضيه على خاطره ، ورنا بأمله إلى مستقبله الذى يرجوه ، فكان إذا رأيته رأيتَ ضراعةً واستكانةً ، أمام كبرياء وعزةٍ ، فهاجتْ عواطفُ ضعفِه، وأسلم نفسَه إلى بكاء مرير ، فربتت الصغرى منهما على كتفِه ، وقالت لأختها : أشهدُك أنّ هذا أخِى ، نُورُ عيْنِي ، وأعزّ علىّ من نفسِى ؛ فتحركَ صدرُه بنسيمِ الحياةِ الراضيةِ ، والوجودِ الهنِيء العزيزِ ، وقامتا به إلى داخِل القصرِ ، فألبسته أختهُ حلةً ملكية ، وأحضرتْ له فاخِرَ الطعام ، المختلفِ الألوان ، فأكلوا جميعهم حتى شبعوا ، ثم قالت له : حدّثنا حديثَ هذا المجوسى الفاجِر ، من يَوم وقعتَ فى يدِه ، حتى تشرّفَ بك هذا القصْر ، وملأتَ حنايا صدْرِى ، واعتززْتَ بأُخُوّتى ، وسنقصّ نحن عليكَ من أمرِنا عجبا ؛ فنفضَ إليهما بجُملة أمرِه ، وأطلعَهُما على اليَقينِ الواقِع من نَبئِه ، فقالتا : هل سألته عنْ هذا القصرِ ؟ فقال : أجَلْ ، وأجابَنِى فى غضبٍ وكراهيةٍ : إنه قصرُ الشياطين والمرَدةِ ، والأبالسةِ الكفرةِ ، ولا أحِبّ سيرتَه ، أو أذكر شيئاً عنه ، فعلا وجْهيْهما سحابةُ غضبٍ ثائرٍ ، وألمٍ ساخرٍ ، وقالت أختهُ : أبلغَ من فجورِه أن يجعَلنا كفرةً فجرةً ؟ واللهِ لأقتلنّه أشنعَ قتلة ، وإنى لأعرِف مكانَه الذى يأوِيه ، ولا مَفرّ من إهْلاكِهِ ؛ وإن طالتْ أيامهُ ولياليه ، فقالت أختُها : لقد صدقَ أخوكِ حسنٌ البصرى ، فحدثِيه أنتِ حديثنا ، حتى يكونَ هو على بَلاغٍ من أمرِنا ؛ فقالت أخته : إنّنا سبعُ بناتٍ شقيقاتٍ ، لِملكٍ عظيمٍ من ملُوك الجَان ،

ذِى حوْلٍ وطولٍ ، وسلطانٍ نافذٍ ، على المرَدةِ والشياطينِ ، بلغ مِنْ غيرتِهِ وكبريائِهِ وعزتِهِ ، أنْ أَبَى زواجَنا من أحدٍ ، فطلَبَ إلى رِجالِهِ ، ووُزرائِهِ وأعْوانِهِ ، أن يدلُّوه على مَكانٍ لا يَصِل إليــه إنسٌ ولا جانٌّ ، بحيث يكونُ وسَطَ الأشجارِ ، التى تجْرى من تحتِها الأنهارُ ، فقالوا إنه قصرٌ بجبَلِ الساحلِ ، بناهُ ماردٌ من مردَةِ سليمان ، ولما هَلَكَ لم يسكنْه أحدٌ من بعدِهِ ، فجاء بنا إلى هذا القصرِ الذى نحنُ فيهِ ، وجهزَنا بكلِّ ما نحتاجُ إليه ، فإذا مَا رامَ حضورَنا عندَه ، أمر السحرةَ فنقلونا إليْه ، قبلَ أن يَرتَد إليكَ طرفُك ، وهناكَ نعيشُ ما أراد لنا والدُنا العِيشة ، ثم يَأمُر السحرةَ ، فيُعيدونَنا إلى قصرِنا ، على نحوِ ما نَقَلونا .

وأخواتنا الخمسُ ذهَبْنَ إلى الفَلاةِ للصَّيْدِ ، وكلُّ اثنَتيْنِ منا عليهما نوبةُ المكْثِ فى القَصرِ ، لإعدَادِ الطَّعامِ ، والقيامِ بأمورِ المعيشةِ المنْزليةِ ، وهذه نَوبتُنَا ، وكنا قبل حضورِكَ ، نسألُ اللهَ أن يرزُقَنا إنسانًا ، نأنَسُ بِهِ ، ونفرح بلقائِهِ ، والحمدُ للهِ إذ أنسنا بحضورِكَ ، فطِبْ نَفسا ، وقَرَّ عينا ، فقال حسن : الحمد للهِ الذى هــدانا لِهذا وما كُنَّا لنَهتَدِى لولَا أن هَدانا اللهُ .

قامتْ أختهُ وأدخَلتْهُ مقصورةً مجهزةً بفاخرِ الأثاث والرِّياش ، ليأخُذ حظَّه من الرَّاحَةِ ، وحاجةَ جسمِهِ من النوم ، ولم يكدْ تشمله مقصورتهُ ، حتى جاءت البناتُ الخمسُ ، فأخبرتْهنَّ أختاهن خبرَه ، ودخلنَ جميعُهن عليهِ ، فهنأنَه ووَدعْنَه ليستَريح .

امتزج حسن بهن امتزاج أخوة بارة ، وصداقة بريئة ، كلها جلال ونبل ووقار ومودة ورحمة وإكبار ، فى صيدهن وإقامتهن ، وعلى طعامهن وشرابهن ، حتى تخطى عاماً كاملا .

وبينما يطل من نافذة القصر فى يوم ما ، إذ رأى المجوسى ، ومعه شاب مسلم فى مقتبل حياته ، بالقرب من القصر ، فأهاب بأخواته أن قد أتى المجوسى هذا الظالم بقربانه وضحيته ، فتنكرن جميعهن فى زى الفرسان ، وخرجن ملثمات ، وركب حسن معهن جواده ، وتقلد سيفه ، إلى ذلك المجوسى اللعين ، فوجدنه قد ذبح جملا وسلخه ، وجعل يرغم الشاب المسلم الذى جاء به ، على الدخول فى جلده ، ويوسعه فى سبيل ذلك ضرباً وإيلاماً ، فجاءه حسن من خلفه ، وأغمد سيفه فى ظهره ، فبرز من صدره ، ووقع على الأرض ، لا حراك به ، ومات غير مأسوف عليه ، ثم قال له : هذا سر الخبز والملح ، قد أبطل سر نارك الذى أرداك ، وتلك للجبين متخبطاً فى دمك ، مشيعاً بلعنة من الله والملائكة والناس أجمعين .

ثم أركبوا المسلم الذى أتى به جواداً ، وزودوه بما يحتاج إليه من طعام وشراب ، وقالوا له : ارجع إلى أهلك بسلام آمناً .

ولقد زاد حسن البصرى فى قلوب أخواته حبا وإعجاباً به ، لشجاعته وجرأته ، ولأنه أرضى الإله القادر ، بقتله هذا الكافر الغادر .

وذات يوم من أيامهن الهادئة ، سد الأفق غبرة كثيفة قاتمة ،

وكانت تقرُبُ من القصر شيئاً فشيئاً ، فعرفن مثارَها ، لأنّهن قد اعتَدْنها ، وَأشَرْن على حسنٍ أن يختبِئَ فى مقصورتِه ، لا يَبرحُ ولا ينفكّ ، حتى يُؤْذَن له ، وانجلت الغبرةُ عن عسكرٍ جرارٍ ، أوفده الملك إلى بناتِه ، ليحضرهُن إليهِ ، فقلن لهم : خيراً إن شاء الله ، فقالوا سَيقام فرحٌ عند أحد رجالاتِ الدولة ، ويرغبُ الملكُ فى حضورِكن ، لتفرّجْن عن أنفسِكُن ، وتُقِمْن فى ظلّه الوارِف شهرَين ، بعد أن تَنتَهى ليالى الفرح الثلاث؛ فقلن : ذلكَ ما نرجُوه ، فإنّ أحَبِ الأشياء إلى قلوبنا ، أن نكون بجوارِ أبينا ، ثم ذهبْن إلى حسن البصرى فى مقصورته ، وأفضَيْن إليه أمر هذه الرحلة ، وملّكْنه مفاتيح المقصوراتِ ، وجعلنَه فى حلٍّ من الاستمتاع بالقصر ومَا فيه ، وحظرن عليه فتح بابٍ عرّفنَه به ، حتى يَعُدْنَ إليه ، وودّعنه ، وسلّمن عليه سلاماً جميلًا .

(٣)

ضَاق حسن البصرى صدرًا بوحدَتِهِ ، فجعل يجُوس خلالَ حجرات القصر ، تَسْرِيةً عن نفسِه عما يحْوِيه ، ولما لم يُجْدِ ذلك شيئاً قال فى نفسِه : وما ضَرّنِى أن أفتحَ هـذا البابَ الذى حَظَرْن علىّ فتحه ، فعسَى أن أجدَ فيه من ضِيقِ الوحدةِ مَخرجاً ، ومن هم العزلة فرَجاً ؛ وعقد النية على فتحِه وإن كان فيه حتْفُه .

دَلَفَ نحو ذلك البابِ مُغَامراً وفتَحه ، فرأى سُلماً فى صدرِ المدخَل ،

يقابل الداخل ، فصعد فيه ، حتى كانَ فوق سطح القصر ، فأشرف على بستانٍ بجانبه ، فيه أشجارٌ باسقات ، وزَرع ونخيلٌ ، صِنْوانٌ وغيرُ صِنوانٍ ، تجرى من تحتِها الأنهارُ ، وفوقها الطيورُ تسبِّح بحمد الله ، وتقدسُه ، فسلكَ السبيلَ إليه ، وجعل يَجُوس خِلاله ، ويَجُول فى ثناياه ، حتى رأى فيه قصراً بهرَه جمالُه ، وراعه بهجةُ روائِه ، فدخل فيهِ ، وألقَى فى فنائِه الذى يتوسطه ، بحيرةً ذاتَ مياهٍ عذبة ، كأنها الفضةُ السائلةُ ، وعلى جانبها تختٌ من النَّدِّ ، مرصع بالجواهرِ واليواقيتِ ، فجلسَ متأمِّلا ، بما حَوَاه ذلك القصرُ من ألوانِ المتاعِ ، وضُروب الزينةِ ، ومن معادِنَ نفيسةٍ ، وجواهرَ كريمةٍ ، فأدهَشَه ما رأى فى أخواته ، من خالصِ الصحبَة ، وصدقِ المعُونة ، وعظيمِ الألفةِ ، وما وجدَه منهن ، من حَجْزهِ عن هـذا القصر وزينتِه ، وبينما هُو سابحٌ فى بَحر من تأمّلِه وإعجابه ودهشتِه ، إذ رأى عشرةَ طيور مقبلة نحو القصرِ ، فظن أنهن يقصدْنَ البُحيرةَ ليَشربْنَ من عذْب مائِها ، فاختبأ حتى لا ينْفِرن فَلا يَرِدْن ، وهو يَودُّ ورودَهن ، لعلّه يقفُ منهن على أمر جديدٍ عجب .

حطّت الطيورُ على التختِ الذِى على جانِب البحيرة ، فرأى من بينهن طيرًا يفوقهن جَمالاً وعظماً ، وكنَّ يُحِطْن به ويعظمنَه ، ثم شَقَّ كلُّ طائرٍ جلدَه بمنقاره ، وخرج مِنْه ، فإذا بالطيور بنات أبكارٌ ، كواعبُ وأتراب ، كأنهنّ اللؤلؤ المكنونُ ، فنزعن لباسهن ونزلْنَ يغتسلنَ ، فجعلنَ يمرحْن فى مائِها ، سابحاتٍ ، طافياتٍ ، غاطساتٍ ، زاهياتٍ

جاثيات ، وهنّ فى أثناء ذلك يُكبِرْن بنتاً منهنّ بارزةَ الشخصيةِ ، باديةَ الجمالِ والوقارِ والجلالِ ، فشُغِف حسنٌ البصري بها حبا .

خرجن من البحيرة ، ولبسنَ ثيابَهن ، وجلسْن على التَّختِ يتبادَلنَ الحديثَ والضحك ، فى سرور وبهجة ، ولما حانَ وقت العصر قالت إحداهن : يا بنات الملوك ، هيا بنا ننصرف ، فقد تأخَّرْنا عن كل مرةٍ ، والبلادُ بعيدة ، والشمس كادتْ تؤذن بالمَغيب ، فلبسن جميعُهن ثيابَ الريش ، فصِرْن طيورًا حلّقْن فى الجوّ ، ثم ذهبْن ، إلى ديارِهِن ، تاركاتٍ حسناً البصرى فى لهَبٍ من شَوقٍ محرقٍ ، وغرامٍ مضْنٍ ، ولوعةٍ مضطرمةٍ .

قام حسنٌ من مكانِه ، ومشَى فى ذهُولٍ وغَشْيةٍ ، حتى وصَل إلى مقصورتِه ، فدخلَها وأغْلق بابها ، وألقى بنفْسه على فراشِه ، دون أنْ يَذُوق طعَاماً أو شرابًا . وقضى ليلةً نابِغيَّة .

ولما طلعت الشمسُ ، أسرعَ إلى مكانِه بالأمس ، فى انتِظار البَنات العشر ، ثم انقْضى النهارُ وولَّى ، فلم يَرَ لهنَّ شبحاً ولا أثَرًا . فضاقت فى وجهِهِ الدنيا بما رَحُبت ، وذهب إلى مقصورته ، لا يقر لهُ قَرار .

وبينما هُو فى وحدته ، يتحرّقُ بوجْدِهِ ولَوْعتِه ، إذ رأى غبرةً فى البرّ قادمة ، فجرَى إلى مَخدَعِ بالقَصر واختبأ فيه ، وانجلَتْ هذه الحالُ عن عِلْمه أن بناتِ القصر عُدْن من الرّحيل ، وما هُو إلا وقت قصيرٌ حتى كان بالقصر بناتُ الملك، فدخلتْ كلُّ بنتٍ مقصورَتَها ، لتَنْزع عنها ملابسَ

السفرِ إلا أُخته الصغيرة ، فإنّها ذهبَتْ إلى مقصورتِه ، قبل أنْ تخلع ملابِسَها ، فلم تَجِدْه فيها ، فأَخَذتْ تبْحَثُ فى زوايا القصر ومكامِنِه ، حتى ألفته فى مخدعٍ من مخادِعه ، نحيلَ الجسم ، حائلَ اللّونِ ، فاترَ العينيْن ، خافتَ الصوت ، باديَ الهزال ، فحملَتْهُ إلى سريرِه وسألته : ما بالُك ؟ وما الذى أصابَك ؟ أخبرنى يا أخى حتى أكشِفَ ما نزلَ بك من ضُرّ وأذًى ، ولا تخشَ منى نكرًا لكَ أو ضَرّا . فقال : أخْشى أن تحرِمينى عطْفَك وعوْنك ، فأموتَ وأهلك ، فقالت : وربِّ الكعبة لن أتخلّى عنك ، وإن جُدتُ بنفسى فى سبيلك ؛ فحدّثها بما جرَى وما رأى ، ولم يغادر صغيرةً ولا كبيرةً من أمرِ الطيور إلا أحصاها حديثُه ، فبكت أُخته ، ورقّت لحاله ، ورحِمتْ غربتَه ، وقالت : طِبْ يا أخى نفْسًا ، وقرّ عينًا ، فسأدبِّر لكَ الأمرَ ، وأبذل لكَ عوْنى ، حتى ترْضى وتعيشَ مَع مَنْ تحِبّ عيشةً لا تظمأ فيها ولا تضْحى ، إنْ شاء اللهُ تعالى ، غير أنّى أُوصيكَ بكتمانِ هذا الأمرِ عن أخواتى ، ولا تخبرْهن أنكَ فتحت البابَ أبداً ، واعزُ ما بدَا لك من تغيّر الحالِ ، إلى حرجِ الوحدَةِ ، وطُول الغَيْبةِ ، وعنَت الوَحْشةِ ، وذلّ الغربةِ ، ومرارةِ الفُرقةِ ، وحُرْقة الشّوق إلى سالفِ العِشْرةِ ، ودوامِ الصحبةِ ، وحذار أن يرْتبْن فى أمرِك ، أو يعرفْن شيئًا مما يَمُوج فى صدْرك ، فإن فى ذلك هلاكى وهلاكك ، فقبّل رأسَها ، وشكرَ لها صدقَ أُخوّتِها ، وطهارةَ حبّها ، وبراءةَ عطفِها ، وجميلَ حنانِها ، وطلبَ إليها شيئًا من الطعام يُمسِك به رمقَه ، ويعيدُ إليه

حَياته ، ويردُّ إليه نشاطَه ، ليقعَ تعلُّلُه الزائفُ من نفوسِ أخواتِها موقِعَ الصدق واليَقين .

خرجَتْ أختُه إلى أخواتِها باكيةً ، كاسِفةً حزينةً ، فسألْنَها : ماذا بَدا حتّى تغير حالُك من ابْتسامٍ إلى وُجومٍ ، ومن إشراقةٍ إلى كآبةٍ ، ومن ضَحكٍ إلى بكاء ، ولم تمض على ذلك إلا بمقدارِ ما نزعْن ملابسَ السفر ؟ فقالت : وجَدْت أخى رهينَ الفراشِ ، بَراه السّقمُ ، فأصبح كالخِلال ، وبرّح به الجوعُ فأضحى كالخَيال ، فقلْن : وما سببُ ذلك وقد جعلْناه على خَزائنِ قصْرِنا ، ومخازِن زادِنا ، دونَ أن يشعرُمنا أذًى ولا مَنًّا ، فقالت : مَرَدُّ ذلك غيبتُنا تلك المدةَ الطويلة ، فقد كانت عليه عِبئًا ثقيلاً ، انحسرَ فيها عنهُ نورُ الأُنس بِنا ، وسجَّاه ظلامُ الوَحشةِ لِفراقِنا ، وربّما حركَتْ فى نفسِه ، ذكرَى أُمّه ، وبُكاءها لفَقْدِه ، وقد كُنّا له مِنْ قبل خير عزاء وسَلْوَى ، فلما افتَقدَنا افتقَدَ جميلَ العزاء فأصابه ما أصابهُ مِن البلاء .

بكَت البناتُ أسفًا عليه ، وخرجْن فشيّعْن العسكَرَ ، ثم دخلنَ مقصورَتَه ، وجعَلْن يلاطِفْنه ويؤانِسنه ، بما يقصُصْن من طرِيف النوادِر ، وما رأينَه فى سفرَهِن وإقامتِهن من عجيبِ الحوادِث ، وعُنِينَ بأمرِه عنايةً دونها عناية الأمّ بوحيدِها مدة شهرٍ كامل ، وهو لا يزدادُ إلا سوء حال ، وبؤس مآلٍ ، فشملهن من أجْله حزنٌ أليم .

وذات يوم عزمْن على الخرُوج للصيْد والقَنص ، فقالت أختُهن

الصغيرةُ : لا بأسَ فى ذلك،ولـكنَّ نفسِى لا تُطاوِعُنى أنْ أخرُجَ معكن، وأخِى لا يزالُ يقاسِى آلامَ علتِه ، فسألازِمُه حتى يبرأ منها ، فشكرنَ لها مروءتها وقلن : إنَّ لكِ بهذا عند الله أجراً جزيلا ، وفضلاً كبيراً . ثم غادَرْن القصرَ ، وأخذنَ معهن زادَ عشرين يوماً ،ولما أيقنَت أختُه الصغيرةُ أن أشباحهن اختفتْ فى مَدارِج الفلاةِ ، أقبلَتْ عليه قائلةً : قم فأرِنى المكانَ الذى رأيتَ فيه البناتِ العشرَ ، حتَّى أُدبِّرلكَ الأمرَ ، وأُمهِّدَ لكَ سبيلَ الفوزِ والنصْر ، فتحَرّكَ ذلك الجسمُ الهامِدُ المتهالِكُ ، واتَّـكأ عليها إلى ذلك المـكان . وهُناكَ رأت البحيرةَ والتّخْت فعرفتْ كلَّ شىء ، فامتقعَ وجهُها ، وحالَ لونُها ، وانكفأ حالها ، فسألها حسنٌ : أترِيْنَ فى أمرِى عُسراً ، فاصفرّ منكِ الوجه وعَبَسَ ؟ فقالت : مهما يكُن من شأنِك فلَنْ أُلقىَ مِنْ يَدِى زمامَه ، حتى يكتُبَ اللهُ التوفيقَ وبُلُوغ المُنَى ، أوْ يُراقَ فيه آخرُ قطرةٍ من دَمى ، فأصِغْ إلىَّ ، وتَدَبّرْ ما أقول : إن هذهِ الفتاةَ التى عَلِقَ بها قلبُك ، بنتُ أعظمِ ملوكِ الجانِ ، وأشدّهم بأساً ، وأكثرِهم عُدّةً وعَدَداً ؛ يخضع لسُلطانِه إنسٌ وجانٌّ ، وسَحرةٌ وكهانٌ ، وشَياطينُ ومردةٌ ، وأقاليمُ كثيرة ، وأبِى نائبٌ من نُوابِه ، ولهُ من البناتِ الضاربات بالسيوف ، الطاعناتِ بالرماحِ ، خمسةٌ وعشرون ألفاً ، كل بِنْتٍ تُضارعُ ألفَ فارس،وله سبعُ بناتٍ أخرياتٍ ، يفُقْنَ أخواتِهن قوةً وبَسالة ، وضَرْباً وطَعناً ومَهارة ، وقد وَلّى على قطرٍ مساحتُه مَسيرةُ سنةٍ كاملة ، ابنتُه هذه التى شُغِفْتَ بها حُبّاً ، وفيها من المـكرِ والسِّحر

والشجاعةِ والبأسِ ، ما تقاومُ به أهلَ مملكتِها . وأما البناتُ اللائى يصحبْنها فهنّ أعوانُها فى مُلكِها ، وهذه الثيابُ من الجلدِ والريشِ اللائى يطرْنَ بها ، من صُنعِ سحرة الجانّ ، وهنّ يحضُرْنَ إلى هذه البحيرةِ ، كل شهرٍ مرّة ، فإنْ أردتَ الزواجَ من فتاتِك فارتقِب مجيئَهُنّ ، فى مكانٍ قريبٍ منْهُنّ ، بحيثُ لا يَرَيْنَك وتراهُنّ ، فإذا ما نَزَعْن ثياب الطيرانِ عنهن ، فاسترِق الخطا ، وخُذْ ثيابَ فتاتِك ، فإذَا انتهيْنَ من الاسْتحمامِ والمَرَحِ تفقّدتْ ثيابَها فلم تجِدْها ، وإذْ ذاكَ تطيرُ البناتُ راجعاتٍ ، وتَبْقَى وحدَها ، واحذَرْ أنْ تشفِقَ عليها ، وهىَ تبحثُ عنْه فتُظهِرَه ، فإنّكَ إنْ فعلتَ ذلك ، هلكْتَ وهلكْنا جميعُنا معَك ، فقال : ولَنْ يكونَ إلا ما أشرْت به ، ومكثَ فى مكانِه مرتقباً ، وأُختُه تقوم بطعامِه وشرابِه ، وما يَلزمُ له من شئونِ المعيشَةِ .

وبيْنما هو جالسٌ ذاتَ يوم فى مرتقبه ، إذ رآهُنّ مُقبلاتٍ مُسرعاتٍ ، فاختْبأَ فى مكانٍ يراهُنّ منهُ ولا يَرينَه ، ونفّذَ ما أمرته أختُه الصغيرةُ ، وكانَ كلّ ما تنبأتْ به .

ولما طارت البناتُ عنها ، وتركْنَها لا أنيسَ لها ، إلا بكاؤُها ونحيبُها سعَى إليها ، فتلقّاهُ قبل الوصولِ صوتُها يردّدُ : سألتك يا مَن أخذْتَ ثوبِى ، أن تَرُدّه علىّ ، فلا أذَاقَكَ اللهُ حَسْرَتِى ، ولا أوقعكَ فى مِثْل نكبتِى ، وكادَ هذا القولُ ينالُ من نفْسِه ، ويسلمُه إلى الإشْفاقِ والرحمة ، فيناولها ثوبها ، لولاَ أن الحب غشّى مشاعِرَ النّخوةِ فيـه ، فأصبَح

لا يستجيبُ إلا لمطالبه ودَواعِيه .

فأقبلَ على الفتاةِ وأمسَكها وقادَها إلى مقصورته ، حزينةً باكيةً ، ثم أغلقَ البابَ عليها ، وفرّ إلى أُختِه ، يُبَشرُها بفوزِه ، ويستَبِينُ منها وجوهَ الرأى فى أمرِ بُكائها وحُزنِها .

قامتْ أختُه إليها ، ودَخَلتْ مَعه عليها ، فقبّلت الأرضَ بين يَديْها ، جَرْياً على العُرف المفروض فى تحيةِ الملوكِ وأوْلادِهم . ثم نظرتْ فتاة حسنٍ إلى أُختِه نظرةَ إنكارٍ وألمٍ وحَسرةٍ وقالت : يا بِنْت الملك ، أهكذا تفْعَلِين ببناتِ الملوكِ ؟ ألا تعلَمينَ أن أَبِى بلغَ من عظمةِ مُلكِه وقوته ، أنّ ملوكَ الجانّ خَشِيَتْ سطوَته وأن فى خِنْصَرِ يده خلقاً لا يعلَمُ عددَهم إلا اللهُ تعالى ، يأمُر فيهم ويَنْهى ، كما يَشاء ويهْوَى ؟! وكَيْفَ تُبِيحينَ لنَفسِك إيواء رجالٍ من الإنسِ يطّلعُون على أحوالِك وأحوالنا؟! وإن لَمْ يكنْ هذا مِنْ عَملِكِ وتدبيرِكِ ، فكَيْفَ وصلَ هذَا الشابُّ إلينا ؟ فقالتْ أختُ حسنٍ : يا بنتَ أعظمِ المُلوكِ ، إن هذَا الشابّ إنْسِيٌّ ، كَمُلتْ مروءَتُه وعظُمَ خُلُقُه ، ولا يَبْغِى سُوءاً من عَمَلِه ، إنه يُحِبّك حبًّا جَمًّا ، ويرجُو الزواجَ مِنْك ، وما خُلِقَت النساء إلا للرّجالِ ، وما خلِقَ الرجالُ إلا للنّساء ، وقصّتْ قصتَهُ عليها ، وما قاسَاه من الأمراضِ والآلامِ من أجْلِها ، فأمْسَكت الفتاةُ عن البكاء فى وُجُومٍ وأخلدَتْ إلى يَأسٍ مَحْتُوم .

وعنْدَ ذلكَ قامتْ أختُ حسنٍ ، وألبَستْها ثياباً من سُنْدُسٍ ،

وإستبرق، وأطعمتها مالذّ وطابَ من الطعامِ والشرابِ ، وجعلتْ تروضُها ، ونستنزلُها من كبريائِها ، وتهزُّ بنيانَ تعنُّتِها ، وتنفثُ في صدرِها سحرَ الحبِّ لأخيها ، وتبني لها قصورًا من الآمالِ ، تنعمُ في خلالِها ، وتُنسيها ما كانتْ فيه من مُلك ومُتعةٍ ، حتى أجابتْها : يا بنتَ الملكِ ، هذا حكمُ اللهِ ولا مُعقّبَ لحكمِهِ ، فصبرٌ جميلٌ ، واللهُ المُستعان .

قامتْ أختُ حسنٍ ، وأعدّت لها أفخمَ مقصورةٍ ، فاتخذتْها الفتاةُ مُقامًا لها ومأوًى ، ودأبتْ أختُ حسنٍ على أن تتودّدَ إليها ، وترفُق بها ، وتسترضيها ، وتحبّبَ إليها الحياةَ الجديدةَ المشرقةَ بالهناءةِ والسعادَة ، حتى شرحَ اللهُ صدرَها ، وسَلَتْ أهلَها ووطنَها ومُلْكها .

حضرت الأخواتُ الستُّ من القنْص والصيد ، ومعهُنّ شيءٌ كثيرٌ مما صِدْنَه ، ودخَلت كلُّ بنتٍ مقصورتَها ، واستبدلَتْ بملابس الصيد ملابسَ أخرى رائعةً ، وشمّر حسنٌ عن ساعِدِه ، وأخذ يَذْبَحُ من الصّيد ما أرَدْنه غذاءً لهُن ، ثم جلسْنَ ليطبخْنَ ، ويهيّئن الطعام ، وأقبلَ حسنٌ على البناتِ يقبّلُ رُءوسَهُنّ ، بادِئًا بكُبْراهُن ، وبالغَ في تحياتِهِن ، فقالت إحداهن : ما أكثر تحياتِك ، وأعظم تودُّدَك اليوم يا حسن !!! فدمَعتْ عَيناه في ذلةٍ واستحياء ، فقالت : لقد كدّرتَ صفوَنا اليومَ ببُكائِك ، إن كُنتَ قد اشتقتَ إلى أمّكَ ، فإنّا على استعدادٍ لتَوصيلِك ، في لَمْح البصرِ سَالمًا ، فقال : لن أرتَضِيَ فِراقَكُن ، فقالت : ومن مِنّا كرِهتْ مُقامَك وبرِمَتْ بك حتى بليْتَ ؟ ! فخشِيَ أن ينكرْن عليهِ

موقفه العاشقَ ، إنْ أفضَى إليهنّ بما فى نفْسِه ، فاعتَصَمَ بالسكُوتِ ولمْ يتحركْ له لِسانٌ ، وأعجلَتْهُ أختهُ الصغيرة عن الإجابة فقالت : لقد اصطاد من الهَواء حمامةً ، ويأمُلُ فيكُنَّ أن تُعِنَّه على البناء بها ، فقلْن : نحنُ ملكُ يديه ، وما أهنأَ على أنفسنا أن نَقضِيَ له ما يُريد ، ونجعله فى جنات ألفافٍ من رغباتِه فليُطلِعْنا على أمرِه ، ولا يَكْتُم عنا شيئاً منه ، فالتفتَ إلى أختِه قائلًا : لقد عَقد الحياء لسانِى ، فلا أستطِيعُ قصّ شىء من حالى ، فتولتْ أختُه ذلك ، وحدثتْهنّ حديثَه وفتاته ، فى غير نَقصٍ أو زيادة ، فقلنَ ، وأينَ هِى الآن ؟ فقالتْ فى المقصورةِ الخامسة عشرةَ ، فقلْنَ هيّا بِنا إليها .

دَخلن عليها جميعهن ، وحسنٌ البصرى معَهُنّ ، فلما رأيْنها أكبرْنَها ، وقبّلنَ الأرض بين يَديْها ، ثم جَلسْنَ وحَيَّيْنَها تحيةً طيبةً كَريمة ، ثم قلْن لها : يا بنتَ الملكِ الأعظمِ ، والعاهِل الأكبر ، إن جمالَكِ باهر عجيب ، وخُلقك الكريم أبهر وأعجب ، وهذا شابٌ لا يُدانِيه أحدٌ من الرجالِ خَلْقاً ، ولا يساميه خُلقاً ، كُوِّن من طهارةٍ ، وصيغ من مُرُوءةٍ ، وبُعِثَ من قوةٍ وشجاعةٍ ، وفُطِرَ على وفاء ونبالةٍ ، وعَطِرَتْ سيرتُه بيْنَ النساء فأُغرِمْن بِه حبًّا ، وقد أضْناه الولَعُ بك ، وألقَى بحياتِه بيْنَ أحضَانك ، فى براءةِ قصدٍ ، ونزاهَةِ غايةٍ ، فلم يُرِدْ سُوءاً بك ، ولكنّه يطلبُ يدَكِ على سُنَّةِ الله ورسولِه ، وأىُّ بنتٍ لم تخلَق للرجُل ؟ ألم يَجعل اللهُ ذلكَ آيةً من آياتِه ، ونعمةً من نعمائِه ، فقال جلّ شأنه : « ومِنْ آياتِه أنْ خَلَقَ

لَـكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أزْوَاجاً لتسْكُنُوا إليْهَا وَجَعَل بَيْنَـكُمْ مَوَدَّةً ورَحْمَةً » . وأنتِ آيةٌ من آياتِ الله ، فلا تُعَطِّلِيها بتَمَنُّعِك ، ولا تُبْطِليها بإعْرَاضِك ، ولقَدْ بلغ مِنْ حرصِه عليكِ ، أنْ أخرَقَ ثَوبَ الرِّيشِ حتَّى ينعَمَ بزوجٍ كريمةٍ و نفسٍ رحيمَةٍ .

فقالت : إنكُنَّ سبعُ بناتٍ ، تشرقْنَ فى جَنَباتِ القصرِ ، إشراقَ الكواكب فى السماء ، ولا تَنقُصْن عنِّى خَلْقاً وخُلُقاً ، وقد عاشرْتُنَّ هذا الشابَّ ، عِشرةً عقدت ما بينكُن وبينه ، بأسبابٍ من مَودَّةٍ ورحمةٍ ، فما يَمْنُع إحداكُن أن تكُون زَوْجاً له ، وتُخْلِينَ سَبِيلِى ! فقالتْ إحْداهُن ! نحنُ نَغْبِطُك على اختيارِه ، ولا نَحْسدُك عليه ، ولو رَأى رأيكَ فينا ، لَسَعِدْنا بِه ، وأسرعْنا إليْه ، ولكنَّكِ تعلَمين أنَّ مِنْ عَناصِر الزوجيّة الصالِحة ، الحبَّ البرئَ ، القائمَ على ذَاتِه ، لا على غرض أو منْفَعة ، أو هدَفٍ يجعَلُ المحبةَ وسيلَةً له ، وقد اصطفاكِ أخُونا لَه ، دونَ أن يكُونَ له يدٌ فيه ، لأنَّه يُصَبُّ فى القَلْبِ صَبًّا ، فيُصبِح قُطْباً يَجْذِبُ إليه عَواطِفَ المرء وإحسَاسَه ، وجميعَ ما يَملكُ من حَياة .

فوقعَ هذا القولُ من نَفْسِ الفتاةِ موقِعَ القبُول ، وبنَى بِها حسنٌ فى تِلْك اللَّيْلَة ، فى فرح عميم ، يليق ببنات أعظم الملوك ، ونعم الزوجان بحياة صالحة كريمة هنية .

وبعدَ ثمانينَ يوماً من زَواجِه ، رأى ليلةً فى مَنامِه ، أن والدَته قد اسودّت أيامُها ، فلا تَعرِفُ صُبْحَها من مَسائِها ، وقد اعتصَر الحزنُ

عودَها ، وامتص الأسَى سمنها ووضاءتها فأصبحت عظاماً يكسُوها ثوبٌ من جلدٍ مُجعَّد ، وأنَّها رأتْهُ فى عيشةٍ راضية ، لا يَسمعُ فيها لاغيةً ، فقالت له : أيُرضيكَ حالِى هذا الذِى تَراه ، ويُنسيكَ أمَّكَ ما أنتَ فيهِ من نَعماءوطيب حياة ؟ ! ألستُ أمَّك التى اتخذت لكَ فى بيتها قبرا ، تناجيكَ ولستَ فِيه لتَنقَع بالوهْم غُلةَ الشوقِ إليكَ ، أو تطفئ بالزُّور نارَ التلَهُّفِ عليْكَ ، تقِفُ أمامه سادِرةً ، فيَبعثُها الأمَلُ فى نظرةٍ إلى مُحيَّاك ، ويُميتُها اليـأسُ من لِقائِك ورُؤْيتك ، إن كنتَ تستَطيعُ زيارَتِى فامْنُنْ علىَّ بِها ، فأنتَ مِنِّى ، وفِلذَةٌ من كبِدى ، إن نجْوى الأمّ من نجْوى السماء ، فما لِقلبِك الطاهِرِ ، لا يكُونُ مهبِطَ وحْى ، ومَبعثَ إلهام ؟ ! يا ربَّ السمواتِ والأرَضِين اكتُبْ لَهُ فى غُرْبته سلَاماً وأمْنا ، وابعثْ فى نفْسِه لأمِّه مَرْحِماً ومَرَدًّا ، فأنتَ أرحَمُ الراحِمِين .

نهضَ حسنٌ من نَومِهِ ، حزِينَ النفْسِ ، ضيِّقَ الصدْرِ ، مغرَورقَ العيْنَين ، يخفُق قلبُه حنانًا على أمِّه ، فقامَتْ أمامَه آفاقُ الحياةِ ، وفارقتْهُ ابتسامتُه المشرقَةُ ، وجانبَهُ تألُّقُ البِشْرفى وجْهه

ذهبَت البناتُ إليه على عادَتِهِن ، يحيِّينَه تحيةَ الصَّباح ، ويقْضِينَ بعضَ الوقتِ فى تنادُر ومَرَح ، فوجدنَه سادِراً واجماً ، غارقًا فى ذُهولهِ ، لا يكادُ يَعِى شيئًا مما يجْرِى حَوْله ، فسألْنَ زوجَه عن حالِه ، فقالَتْ : منذُ نهضَ اليومَ من نوْمِهِ ، وهو كَما ترَيْنَه ، ولا أدْرى بعـدَ ذلك

شَيئًا ، فرغِبْن إليها أن تَسأله ، فقصَّ عليهِنّ جميعِهن رُؤياه ، فى تأثرٍ بَدا فى دمُوعِ عَيْنيْه ، واصفرار وَجْنَتيْه ، وتطامُن عِطفيْه ، فقالت البناتُ :

برُّكَ بأمّكَ واجبٌ ، لَيْسَ لنا أن نَحُولَ بَيْنَك وبينَ أدائِه ، ونَحنُ على استِعدادٍ لمَعُونتِك فى سَفَرِكَ ، على أنْ تَكونَ دائمَ الصلَةِ بنا ، فتزورَنا ولو مرةً كلَّ سنةٍ ، ولولَا أنها أمُّك ، والإحسانُ إليها يفرِضُه الدين ، وتوجِبُه الإنسانيَّة ، ما سَمَحْنا لك أنْ تُفارقَنا ، وأن ترحَل عنا ، وقد أصبَحْتَ منا كالأخِ الشقِيق ؛ فشكرَ لهُنّ هذا الشُّعورَ الإنسانى الكريمَ . وقال : لن أنسى فضلَكُنّ ، ولنْ تنقَطِع زيارَتِى عنكُنّ .

خرجت البناتُ ، وأعددْنَ الزادَ والجِهاز ، وأثقلْنَ العروسَ بأنواعِ الحلى ، والحُلَلِ والجواهِر ، ومَنحْنَها تُحفًا قيمةً ، ثم ضربْنَ الطبْلَ ، فأقبلت النجائبُ مسرعةً من كلِّ صوْب ، فاخترْنَ منها العَددَ اللازمَ لهُما ولأمْتِعتِهما . وصحِبْنَهُما فى مسيرِهما ثلاثةَ أشهرٍ ، ثم وَدَّعنَهُما وداعًا حارًّا مؤثِّرًا ، وكانت أختُه الصغيرةُ أشدَّهن جَزَعًا وحُزْنًا ، وألزَمتْهُ أن يزورَهُن كلما استطاعَ إلى ذلك سبيلا ، وأوْصَيْنه أن يَدُقَّ طبْلَ المجوسِىِّ الذى مَعَه ، إذا دَهَمه أمْرٌ ، أو فجأهُ حادِث ، ثم يركب ما يَصْطَفِى من النجائِب ، ويسرع إليهن ، ليُعِنَّه فيما يَعْرِضُ له من الشئون ، فوعدَها أن يُنفذَ أمرَها ، وينزِلَ على رَأيها ، وسار كلٌّ إلى سبيله .

(٤)

أخذَ حسنٌ وزوجُه يطويانِ الأرضَ طيًّا ، حتى كانا بالبَصرةِ أمامَ دَارِه ، فسرَّحَ النجائبَ ، وسمِعَ أمَّه تبْكِي ، فاغرَورقَت عَيناه من أجْلِها ، وطرَقَ البابَ طرقةً قويةً ، فأسرعَتْ إلى الباب ، تتبيَّنُ الطارِقَ ، وما فتَحتْهُ ، وألقتْ على ابنِها نظرَتَها حتى عرفَته ، فخرَّتْ مغْشيًّا عليها بما لَقِيتْ من فرحةٍ فاجئة ، ونَظرةٍ باغِتةٍ ، ما كانتْ ترتقبُها حتى في أحلامِ المُنى ، فحملَها ابنُها على صدرِه ، إلى أقْربِ فراشٍ وَجَدَه ، وما كادَ جسمُه يلمَسُ صدرَها ، حتى بعثَها من غَشْيتِها ، فأفاقَتْ ، وطبَعتْ على خدِّه قبلة ، كان مِنْ آثارِها أثَرُ الصُّور نُفِخَ فيه فبُعِثَ مَنْ في القُبُور .

نُقِلتْ أمتعةُ الزوجَيْن إلى الدارِ ، وانتظمَ المجلِسُ من الأمِّ وابنِها وزوجِه ، فسألته أمُّه عن الأعجمي وما فعلَ ، فأنبأها ما حصَل ، فحمدت الله تعالى ، وأقبلتْ على زَوجه تُحيِّيها ، وقامَتْ بما يَنْبغي من إكرامِ مَثْواها ، وحسنِ عِشرتِها ، فلم تَشْعر الزوجُ بمكرُوه يُذَكِّرُها أهلَها ووطنَها ومُلْكها ؛ وبعدَ أيامٍ معدوداتٍ قالَتْ الأمُّ لابنِها : إنا فقراء ، ويعلم الناسُ فِينا ضيقَ ذاتِ اليدِ ، وقد أقبلْتُما بسعادةِ النفْسِ ، وبَسطةِ المالِ ، وسعةِ النِّعمة ، وقد يَرْتابونَ في أمْرِنا ، ويرمُونَنا بصناعةِ الكيْميا ، ويُوغِرُون صدرَ حاكمِ البَصرةِ علَيْنا ، وإذ ذاك تكونُ الطَّامةُ الكُبْرى في النَّفس والمال ، فلو هَاجرْنا إلى بَغداد ، واتخذناها مُقاماً — نجوْنا

بأنفُسنا وأموالِنا ، وعِشْنا فى كَنَفِ الخليفة آمِنِين .

فقالت الزوجَةُ ، لا تَعصِ لأمِّكَ أمْراً ، فقولُها من وحْى الإله ، ورضا الرَّب فى رِضاها ، فقال : نِعْمَ ما أشارَت به ، وشُغِل جميعُهم بالاستعدادِ للهِجْرةِ ، وباعَ الدارَ ، وما لا يَحتاجُ إليه من مَتاع ، ولما كانوا على أهْبةِ الرَّحيل ، ضربَ الطبْل فحضرتِ النجائِبُ ، التى أقلَّتْهم وأمتعتهم إلى شاطِئْ دجلَة ، وهناكَ سَرّحَ النجائِبَ ووضَع الأمتعةَ فى مركب أقلعتْ بهم إلى دَارِ السلام .

دخل المدينةَ واستأجَر مخزَناً ، نقلَ إليه أمتعتَه ، وباتَ فيه هو وأهلُه ليلتَه ، وفى الصباحِ ذهبَ إلى الدلاَّلِ فعرضَ عليهِ ما عندَه من دُور ، دارٌ كانت لأحدِ الوُزراء ، فاشتراها بمائةِ ألفِ دينار ، وانتقلَ إليها هُوَ وأهلُه ، وأخذت زوجُه وأمُّه فى فَرْشِها ، وتنْسِيقِها ، بعد أن اشترى من بَغْداد ما يَنْقصُه من أثاثٍ وفرشٍ ، وابتاعَ لها خَدماً وحَشَماً ، وعاشَ جميعُهم فى رخاء ودَعَةٍ ، واطمئنانٍ وسلامةٍ ، ثلاثَ سنِين ، رُزِق فيها بغُلامَيْن : سمى أحدَهما ناصِرًا ، وسَمَّى الآخرَ مَنصوراً .

انحسَرتْ عنه الشّواغِلُ ، وتفيأ ظِلاًّ ظَلِيلا من نعْمةِ الأهْل والمالِ ومسالَمَة الزمانُ ، وخَلَّد وجودَه بما رُزِقَ من بَنِين . فذكَرَ أختَه الصغيرةَ وشَقِيقاتِها ، اللاتى كنَّ مهبط نجاته ، ومَشْرِق سعادَته ، وذكا فى صدْرِه الحنينُ إليهن ، فعزَم على زيارَتِهن ، وخرجَ إلى سُوقِ المدينة واشترَى بعضَ الهدايا لهُن ، وأوْصَى أمَّه بزوجِهِ فقال :

لقد لقيتِ من زوجي رضىَ العِشرةِ ، وصِدْق المودّةِ ، وعظيم التقدير والإكرام ، فكوني لها كالأمّ الشفيقة بولدِها ، تتفيأ حنانَك وترفُل في بُحبوحةٍ من عطفِك ، واحذَري كلّ الحذَر أن تُغادِر الدّارَ ، أو تُطِلّ من نافذةٍ ، أو يعرِفَ أحدٌ من أمرِها شيئاً ، وهذا ثوبُها الريشيُّ الذى تطيرُ به ، داخِل صُندوقٍ فى خِزانةِ الحجرة الشرقيةِ ، حِذارِ أنْ تُعلِميها مكانَه ، فربّما هاجَتْها ذِكرى أهلِها واستخفّها الحنينُ إليهم ، فودّتْ أن تبلّ صدرَها بزيارتِهم ، فلبِسَتْه ، وطارتْ بابنَيَّ إلى ساحَتِهم ، وقد يُنسِيها إيانا زُخرفُ الملكِ وزينتُه ، فلا يكون لها إلينا عَوْدة ، وفى ذلك شِقْوة ابنيك وحَتْفُه .

وإيّاكِ أن يثور فى رأسِك سَوْرةٌ من سُلطةِ الأمومة ، ومكانتِها من البُنُوةِ . فتغيّرى شيئاً من هذهِ الوصيّة ، أو تقصّرى منها فى ناحيةٍ والله سبحانه وتعالى يتولّانا بتوفيقِه ، فهو نعمَ المَوْلى ونعمَ النصير .

فقالت أمّه : سأكون لكَ ولها كما أردْتَ ، فاذهب على بركةِ الله ، وأقرئْ أخواتِك مِنّى السلام ، ولا تجعلْني أبتئِس بطولِ غيابِك ، ومرارةِ انتظارِك ، كتبَ الله لكَ السلامةَ فى ذهابِك ومُقامِك ومَجيئِك .

وكانتْ زوجُه على مَسمع منْهما ، أو كانا على مسمَع منْها ، فوعَتْ كلّ حديثهما ، على غيرِ عِلمْ منه ومن أمّه .

دَقّ حسنٌ البصرى الطبْل ، فحضَرت النجائب ، وحمّلها ما أعدهُ من الهدايا والتحَف ، وسلّم واستوْدَع ، وطارت به النجائبُ ، حتى كانَ بباب

قَصْر أخواتِه ، فى اليوم الحادى عشر من سفره ، فخلّى سبيل النّجائب ، ثم استأْذن وسَلَّم ، فتلقّته قلوبٌ ذاكرة ، وصدورٌ على حُبه ـنة ، وابتسامات بالفرح به ناطقة ، وعيونٌ ترسِلُ فى الجو أسهماً من النُّور حفاوةً بمَقْدمه ، فأحطن به ، بعد أن أخَذْن من التُّحف والهدايا ما أحْضَره ، وكانت أختُه الصغيرةُ أكثرَهُن فرحاً بلقائه ، فسألته عن أمّه وزوْجه ، وما كانَ له مدةَ غيْبَتِه ، فقال الحمدُ لله الذى كشَفَ عنا الضُّرَّ ، وأذْهَب عنا الحزَن ، بفضل مَعَونتِكُن ، وكريم أخلاقِكُن ، وإن أُمِّى تقرئكُنّ السلامَ ، وقدوَهبَ لَنا اللهُ من زَوجِي غلامَيْن ، تَرجُو لهما حياةً هنيئَة صالحةً ، وأجلاً ممْدوداً .

ودخَل مقصورته التى أعددْنها له ، وعاشَ معهُن على سيرتِه الأولى ثلاثَةَ أشهرٍ كاملة .

وبعدَ ثلاثةِ أيام من رحيلِه قالتْ زوجُه لأمّه : ما رأيُكِ فى خُلِقى ؟

فقالت الأم : أنقَى من القَطْرِ ، وأحلَى من الشهْدِ المصَفّى .

الزوجة : ألستِ معى فى أنّ غيرةَ الرجالِ على النساء تحمِلُهم على التَّجَنّى .

الأم : تِلكَ سجيةُ الرِّجال ، ولا يحرمها إلا من شَذَّ ونَشَز .

الزوجة : أليسَ من التَّجَنّى القاسِى أن أكُون سجينَةَ الدار ، فلا يسْمح لى بالذّهابِ إلى الحمام ثلاثَ سنوات كامِلات متعاقِبات ؟ !

الأم : وأين زوجُكِ الآن حتى يُجيبَ عَنْ هذا فرُبّما كانَ لهُ رأيٌ فيه ، لا نَفقهه ولا ندْريه .

الزوجة : ليسَ إلا الغَيرة ، التى تتوقّدُ فى صَدْرِ الرّجُلِ حتى تخلُقَ له من الخيالِ حقيقةً ، ومن الوَهْمِ أمراً وَاقِعاً ، والتى تنْصبُ على المرأةِ إعْناتاً وقَسْوة ، واستبداداً ومَذَلة .

الأم ولـكنّه أوْصانِى ألا تبرَحِى مقامَك ، ولا تطلّى من نافذَة .

الزوجة : هــذا هُو الذُّلُ بعينِه ، وماذَا يضيرُكِ لو لطفتِ بى ، وأشفَقْتِ علىّ ، فسمحتِ لى بالذّهاب إلى الحمّام ، تحتَ إشرافِك وصُحْبتك ؟ ! ! وما دُمتِ معى فلَنْ يكونَ فى الأمر ما يُثير سُخْطَك ويَحولُ دونَ رِضاكِ ، وأنْتِ بيننا كالأمْ . تَسُوس أولادَها بالحـكْمةِ والرحمة ، جامعةً بين المصلَحةِ والرغْبة .

الأم : أخْشَى أن ينالَ ابْنِى سُوء من هذا .

الزوجة : لوْ كانَ الأمرُ كما تقُولين ما ذَهبَتْ سيدةٌ إلى الحمام ، ولـكنّهُ كما تعلَمين خاصٌ بالسيداتِ ، الوافِدَات إليه مِنْ كلّ مكان ، وإذا لَمْ يكن للمرأة مَعْصِم منْ خُلقُها ودِينِها ، وطهارَة نَفْسها ، فلن يَعصِمَها سِجْنٌ ولا رَقيب ، وما دُمتِ مطمْئنةً إلىّ من تِلك الناحيةِ ، فلا عَليْك إن ذهبْنا معاً إلى الحمام ، ورجعْناَ ولو مرّةً واحدةً . فأصابَ ذلك القولُ من الأمْ موضِعَ الحنان .

الأم : لك يا بِنْتى العزيزة ما تُريدين .

وأعدتْ كلَّ ما تحتاجانِ إليه فى الحمام وذهبَتا إليه ، وما نزعَتْ عَنْها ملابسَها حتى أضاء الحمام بِنُور جمالِها ، فكانَتْ به كعبةَ السيدَات ، يَطُفْنَ بها ، ويُشْغَلْن عن شُئُونهِن بدوامِ النظَرِ إليها ، فذَاعَ صيتُ جمالها ، وطرقَ كلَّ باب ، وأمَّ كُلَّ مجلس وناد ، وكانتْ من بيْن النساء فى الحمام جاريةٌ من جَوارى هرون الرشيد — تسمَى تُحفة ألهاهَا ذلكَ الجمالُ الباهِرُ ، ورأتْ من الواجِب أنْ تلازِمَها حتى تَعرفَ دَارَها ، فإذا ما نقَلَتْ نبأها إلى السيدة زبيدة ، زَوْج الخليفة ، وأرادَتْها — دَلَّت الرسول على الدَّارِ ، وكان ذلك سبباً فى تأخرِ الجاريةِ تحفة عن العودةِ ، تأخراً كان موضِعَ تَساؤُل .

رجعت الجاريةُ تحفة إلى عَملِها فى قَصرِ سيدتِها ، زوج الخليفةِ هرون الرشيد ، فسألَتْها : لقد أبطأتِ فى الحمام ، فما عَدا مِمَّا بدا ؟ فقالت : لقد جئتُك منه بِنَبأ يقين ، وحكت ما رأتْ ، وما فعلَتْ ، فهالَ السيدةَ زبيدةَ ما سَمِعتْ من جاريتِها عن جمالِ الفتاة ، وأمرَت أن تحضر إلى القصرِ لتراها ، وأنذرت الجارية : إن لم تكُنْ كما وصَفْت ، فإنى أعذِّبُك عَذاباً لم أُعذِّبه واحدةً قَبلك ، ولن أُعذِّبه واحدةً بَعدَك ، فقالت : إنها من الحُور العِين ، وكأنها اللؤلؤُ المكنُون ، فأرسلتْ مَسروراً خادِمَها إلى دارِ الفتاةِ ، ليُحضرها ومَنْ معها .

طرقَ مسرور باب الدار ، فأجَابت أمُّ حسن : مَنْ بالبابِ ؟ فقال : مَسرُور خادم أميرِ المؤمنين ، ففتَحتْ الباب محيِّية ، داعيةً للخليفة ،

وسألته حاجتَه ، فقال : إن السيدةَ زبيدةَ تدعُوك وزوجَ ابنكِ وابنَيْها إلى قصرها ، فقالت : يا مسرور ، نحنُ غرباء الديار وابني على سفرٍ ، وأمرني ألّا أخرجَها ، وأخشى أن يكون في الأمرِ شيء لا يرتضيه ، وربما غضِب ، فوكزَها فقضَى عليْها ، فلا تُكلِّفْنا ما لا طاقةَ لنا به . فقال : هذا أمرُ سيدتي ، ولا بُدَّ من نفاذِه ، وجماعُ الأمر أنْ تراها ، ثم ترجع إلى دارها ، فلم ترَ مفرًّا ، من الاستجابةِ لدعْوَة السيدة زبيدة .

ساروُا جميعًا خلفَ مسرور ، حتى مَثلُوا بين يديها ، فأخذتْها سَكْرةُ العجَب من جمالها ، فنَسِيَتْ جَلَال المُلك ، وكبرياء الإمَارة ، فنهضَتْ إليها ، وضمَّتْها إلى صَدْرها ، وأجلسَتْها بجانبها على عَرْشِها ، وأمرت أنْ تَلْبَس حلةً من حُلَلِ البَيتِ المالكِ ، فكانتْ فيه أروَعَ جمالًا ، وأبهرَ حسنًا ، واختالَتْ بها في مجلس السَّيدة ، في رقصةٍ شَرْقية ، حَبَسَت عليها القُلوبَ والمشاعرِ ، وقيَّدَت الأحاسِيس والنواظر ، ثم قالت الفتاة — وقد اطمأنت إلى إعجابِ السيدة زبيدة برَقصها أيَّما إعجاب — إن لي ثوْبًا من الرِّيشِ لو لَبِسْتُه ، ورقصْتُ فيه رقصتَه ، لرأيتِ ما لَمْ يخطرْ على بالِ أحدٍ من العالمين ، فقالت السيدة زبيدة : وأيْن هُو الآن ؟ فقالت : عندَ سيدتِي هذه حماتِي وأمُّ زوجي ، فأجابَتْ حماتُها على الفَوْر : ما عَهِدْت علَيْها كذبًا ، ولا أدْرى كيفَ كذبَتْ عَليَّ الساعة وجعلتْني في حرجٍ مِنْ أمْرِي ؟! فقالت الفتاة : لا كَذِبَ اليومَ ولا حَرج ، إنه في صُندُوق مُقْفَل بخزانة في الحجْرة الشرقيةِ بدارِنا ، فلم تُرِد السيدة زبيدة أنْ تكدِّر صفو

محبته بسُلطَةِ الإمارَة والحكم ، ففكت من عُنقها عقداً من الجوْهر ، تنُوء بثَمنه خزائنُ كِسْرى وقيصر ، ونفحَت به حماتها ، عَسَى أن تؤثر فيها هذه المنْحة البالغَة ، فتُحضر ثوبَ الريش فى حُرية واختيار ، ثم قالت : وحَياتى عندَك ، لتُحضرِنَ ثوبَ الريش ، ولكِ أن أرُدّه ، فأصَرت على إنكاره ، وأنها لا تَعرِفُ له وُجوداً ولا مَكاناً ، فقالت السيدة زبيدة : ما دُمتِ مصرَّة على موقفك هذا ، فلا عَلىّ أن أتّخِذَ سَبيلًا آخر ، وأمرت أنْ يذهب الخادِم مسرور إلى الدار ، ويُحضر ثوبَ الريش من مخْبَئِه ، فشَتْ أم حسن ومعها مسرور إلى الدار ، تَتَعَثّر فى أذْيالِ النّدِم ، أن سمحَتْ لزَوج ابنها بالْخروج إلى الحمام ، الذى جَرّ عليْها هذه الحال ، التى تَخشَى عاقبتَها ، ويرتقِب الشر منها ، وأدركت أن زوْجَ ابنها ما طلبَتْ أن تذْهب إلى الحمام إلا لحاجةٍ فى نفسها ، شفّ عَنْها ذلك الموقِفُ الأخير وضرَعت إلى الله أن يلْطُف فى القضاء ، ويَجنُبها ما تخْشاه من بَلاء .

وحضَر الثوبُ ، وفحصَه الزوجُ ، فوجدته سَليماً صالحاً ، لم تَنْسَل منه ريشةٌ ، فلبِسَتْه وجعلت ترْقُص فيه وتذهَبُ هنا وهناك ، فأثارتْ كل إعجابٍ ودهشَةٍ ، ثم قالت : وسأُريكن بِدْعًا من الرقْصِ أشد روعةً وبَهْجةً ، وفتَحت الثّوبَ وضمتْ ولدَيْها إلى صدْرِها ، ثم أقفَلته عليهما ، وجعلت تلعَبُ وتمرحُ راقصةً ، ذاهبَةً جائيةً ، فتدنُو من الجالسات ثم تبعِد ، وتَثِبُ فى تلك النَّاحية ، ثم تقفِز إلى ناحيةٍ أخرى ، فى خِفّة ونشاطٍ وسرعةٍ ، والمجلس لاهٍ فى اطمئنانه وطرَبه ، ثم رَفرفتْ بجناحَيْها وطارَتْ

حتى حطّت على شُرفةٍ عاليةٍ من شرفات القصر .

أحسّت السيدةُ زبيدة وقعَ فعلتها الأليمة ، فأخذَت تروضُها على النزولِ بألوان الرُّقى ، وأفانينِ الإغراء فما أجْدى ذلكَ شيئًا ، وقالت الزوجُ : هيهاتَ أن يعود اللبن ماء ، والهرم صبا . يا سيدتى وحماتِى ، إنى آسفةٌ لفرقتك ، وإذا جاء ابنُك واشتهى التلاق ، فليجئنى فى جزائر واق الواق . ثم طارَتْ وأولادُها معها ، إلى بلادها وموطنها .

خارتْ قُوى أم حسن فغُشِى عليها ، وعَزَّ على السيدة زُبيدة أن تصطنِع هـــذه المأساة ، فقامت بإسعافها حتى أفاقت ، وألقتْ إليها معاذيرَها ، نادمةً على ما فرطَ منها . راجِيَة أن تغفِر لها زلتها ، وترحَم جَهْلَها بقدرَةِ الزوج على الطَّيَرَان ، إذا ما لبست ثوبَ الريش ، فغفرَتْ لها ما تقدَّم من ذَنبها ، وركبت الطريق إلى دارِها ، وبنت ثلاثة قبورٍ فيها ، وتعهدَتْها بالزيارَةِ والعُكوف عليها باكية .

(٦)

انقضت ثلاثةُ أشهرٍ ، على إقامةِ حسن البَصرى عند البناتِ ، فرغِبَ فى العودَة إلى بغداد ، ولبّت البناتُ رغبَتَه ، ومنحته مالا ممدوداً ، وهدايا ثمينة ، وودّعْنَه وداعًا كريمًا ، ثم جدّ فى قطْع السُّبُل ، وطى الطُّرُق . حتى دَخَل داره ، بعْدَ أنْ سرّح نجائبَه ، فماذا وَجد ؟

رأى أمّا عجوزا تهالكت على نفسِها ، ونحل جسمها ، وخفَت

صوتها ، وتقطّعت أنفاسها ، واضطرب خفقان قلبها ، واطرد انهمار دموعها ، وطار منها اللب ، واضطرب الرشد ، فلا تخرج من مضطرب إلاّ إلى مضطرب ، ولا تكاد تصحو حتى يتخطّفها الذهول .

رآها حسن على هذه الحال ، فأوجس خيفة فى نفسه ، وتجاذبته الظنون ، فجعل يبحث عن ولديه وزوجه ليعرف ما أصاب أمه ، وبينما هو يبحث عنهم وجد صندوق الريش مفتوحاً ، فأحاط علماً بجملة ما حصل ، ثم رجع إلى والدته وسألها : أين ولداى وزوجى ؟ فقالت : إنّا لله وإنا إليه راجعون . عظّم اللهُ فيهم أجرك ، وأجمل صبرك ، وهذه قبورهم الثلاثة ، فلم يطاوعه له قلبه تصديقها ، وارتاب عقله فى قولها ، وظنّ أن قد عثرت زوجه على ثوبها الريش فحملت ولديها وطارت بهم إلى موطنها ، ثم قال : إنى لا أجد لهذه القبور عندى جاذبية ، ويبدو لى أنها كفارغ البندق ، وخير لك ألا تكتمى الحق ، وإلا ضربت فى الأرض على غير هدى ، باحثاً عنهم فى مشارق الأرض ومغاربها ، فقالت : إنى لا أضاعف فجيعتى فيهم بفجيعتى فيك . وألقت إليه ما حدث إلى أن قالت : وكان آخر قول سمعته من زوجك : إذا جاء ابنك واشتهى التلاق فليجئنى فى جزائر واق الواق .

كان وقع المصاب أليماً فى نفسه ، يخفّفه أمل فى البنات أخواته ، أن ينجدنه ، ويأخذن بيده ، فى هذا الخطب الجلل ؛ وبعد شهرين لبثهما فى داره مكدوداً بآلامه ، متلفعاً برداء أحزانه ، ركب النجائب إلى البنات

السبع ، فأنزلنه منزلَه ، وقلنَ له : أمرٌ جليلٌ جاء بك . ولما يَعض على سَفرك من عندنا شهران أو يزيدان ، فقصّ قصتَه ، فى أسًى وحسرة ، فتغامزَت البنات ، وتجاوَبت الإشارات ، وقلنَ : لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ، امدُدْ يديكَ إلى السماء فإن وَصلتا إليها ، وَصَلْتَ إلى زَوجك وولَدَيك فأطرقَ إطراقةَ يأسٍ وكآبةٍ ، حزَّتْ فى نفسِ أختِه الصَّغيرةَ ، فأسرعَتْ قائلة ، لا تَأْسَ على ما أصابَك ، واصبِرْ صَبراً جميلًا ، فعسَى اللهُ أن يأتِيَ بنصرٍ من عِنْدِه ، وكُنْ رابطَ الجأشِ ، قويَّ العزم ، شديدَ الجلَد ، فإنَّ الأجَلَ المَحْدودَ إلى العاشِرةِ ، لا يَموت صاحبُه وهُو فى التاسعةِ ، وسأُدَبّرُ لك الأمرَ حتى تَلْتقِي بأولادِك وزوجِك إن شاء الله تعالى .

ولم تُرد أختُه الصغيرة أن تستقل بأمرِه ، وتنفرِدَ بمعُونتِه ، فتوسَّلَتْ إلى أخواتها أن يُقاسِمْنها الرأىَ ، فى حَلِّ العقْدة ، واقتحام العقَبة ، وإطفاء نار الفُرقةِ المتأجّجة فى صدْر ذلك المِسكين وأمّه ، وتمكينِه من الوصولِ إلى ولَدَيْه وزوجِه ، أو ردهم إليه ، فأجبْنَها : سنَعملُ بفَضْل الله وحولِه على ذلك ، فاصْبِرى ، ولا تيأسِى من رَوْح الله ، فإنه لا ييْأَسُ من روح اللهِ إلا القومُ الكافِرُون .

كانَ لهؤلاء البنات عمٌّ شفيق يُسمّى عبد القدوس ، يحبُّهن ، ويُحبُّ البنت الكبْرى أكثَر منهن ، ويزورهن أولَ كل عام مرة ، وكان يَعلَمُ منهن تِباعاً ، ما جَرى لحسن البصرى ، كما كانَ قد أعطى كُبْرى بناتِ أخِيه ، صُرةَ بخور ، وقال لها : إذا كانَ لك حاجة ، وأردْتِ حضورِى ،

فضعِي قليلا من هذا البخور ، على جَمرةٍ من نارٍ ، ثم اذكُرِيني ، فإنك تجدينَني حاضراً ، ولا أعْصِي لك أمراً .

رأت هذه البنتُ الكبرى أن أختَها الصغيرةَ ، لا يفارقُها الأسَى على أخيها سنةً كاملة ، وارتقبَت زيارَة عمها في مَوْعِده ، لتَنْشُد عندَه وسيلةً تمكّنُ أخاها من الاجتماع بولَدَيه وزوجه ، ولكن العامَ قد أقبلَ ، ولما يَحضُر عمها ، فوضَعتْ على النارِ قليلا من البخور وذكرته ، فألفَيْنَه قادِمًا على ظهر فيله الأبيض . وبعد أن سلَّم واستراحَ ، قالت الكُبرى : لقد أوْجسْنا خيفةً من غِيابك ، لأنك لم تشرفنا في ميعادك ، فمعذرة إذا كنَّا قد أزْعجناك ، وأثرْنا المخاوف علينا في فُؤادِك . فقال : شغلَني عن الحضورِ إليكنَّ في موعِدِى بعضُ الأمور ، وكانَ في نيتي أن أحضر غداً ، فشكرنَ له عظيمَ عطفِه ، وسرعةَ حضورِه ، ثم قَفَّيْن على ذلك ، بذكْرِ ما أصابَ حسنا البصري ، وطيران زوجه بولَدَيه ، إلى جزائر واق الواق . فأطرقَ برأسه ، وجعلَ ينكت الأرضَ بأصبَعه ثم قال : وأينَ هو الآن ؟ فقلنَ إنهُ معنا منذُ سنةٍ ، وهو لا ينفَكُّ كئيباً حزيناً ، وقد ذهبَتْ أنفُسنا حسراتٍ عليْه ، وأُختُنا الصغيرة أشدّنا أسًى وحسْرة ، فقال : عَلَيَّ بِهِ ، فلما حضَرسلَّم وقبّلَ يديه ثم جلس ؛ فقال العم عبد القدوس لقد أرهَقْتَ نفسَك عُسراً من أمْرِك ، وعرضْتَها إلى أهوالٍ جسام لن تَستَطِيع عليها صَبْراً ، أتظنُّ أنكَ قادِرٌ على الوصُولِ إلى جزائر واق الواق ، وبينَك وبينها الآن سبْعةُ أودية ، وسبعةُ أبحر ، وسبْعةُ جبال ، لا طاقة

لكَ بسلوكِ أحدِها إلا بشِقّ الأنفس ، وتوقُّع المخاطِر ، فإن استطعتَ أيها الشابَ العزيز أن تسلُوَ وتَنْسَى ، كان ذلك أغنى وأجْدَى ، فتفَجَّرَ المجلسُ عن مأساةٍ فاجعةٍ ، وتصمدتْ زفراتُه ، وتجاوبتْ أنّاته ، وتفتحت الآماق عن عَبَراتٍ مُنْهمِرة .

بعثتْ هـذه الحالُ البائسةُ ، فى نفسِ الشيخ عبد القدوس واقدَ النخوَة ، وعزَّ عليه أن يُضَيِّع فيه أملًا مرجوًّا ، ورجاء مقصوداً ، فالتفتَ إلى حسن البصرى قائلا : طِبْ نفساً يا ولَدِى ، وأبْشِر بنيـل ما تُريد وتَبتغى ، فسُرِّى عنهم أجمعـين ، ثم قال : قُمْ وصاحِبْنِى على بَرَكةِ الله وعوْنه .

وبعـد أن سلّم على بناتِه ، ركبَ الفيلَ السّحرىّ الذِى أحضَره ، وأردَفَ حسنا البصرى خلفَه ، وسار كأنّه البرقُ الخاطِف ، ثلاثةَ أيام سوِيّا . حتىّ كانا أمامَ مغارةٍ ، فى جبَل أزرقَ ، يطاوِلُ السماء ، فسرّح الشيخُ عبد القـدوس الفيلَ ، وطرَق باب المغارةِ ، فانفرج عنْ عبدٍ أسوَد ، كأنه شبحُ الموتِ ، بيـده اليُمنى سيفٌ ، وبالأُخرى ترسٌ ، وما لمحَ الشيخ عبد القدوس حتى رمَى سيفَه وترسَه ، وأقبلَ عليه يقبِّل يدَه ، فدخلَ وحسن البصرى فى يدِهِ ، وأقفَل العبدُ من خلفِهما بابَ المغارةِ ، وطوَيا فى سَيرِهما ميلًا من دِهليزٍ ممتدّ ، حتى أشرفا على فلاةٍ ، تباعدتْ نواحِيها ، يُطل عليها بابَان عظيمان من نُحاس أصفر ، ففتح الشيخ عبد القدوس باباً مِنهما ، وأجلس حسن أمامه ، وقال له : لا تَبرَح هذا

المكانَ ، ولا تفتح البابَ حتى أعودَ إليك ، ثم دخلَ وأقفلَ البابَ من خلفِه ، وعادَ بعد ساعةٍ ، ومعه حصانٌ مسرجٌ ملجَمٌ ، لا يُشَق له غبارٌ ، ولا يلحقُه طيرٌ ، فأركبَه إياه ، وأعطاهُ كتاباً ، وفتح البابَ الثانى ، فانشقَّ عنْ بريةٍ فسيحةٍ ، ثم قال له : أرخِ لحصانِكِ العِنان . واتركْه يسير حيثُ يشاء ، فإذا وقفَ أمامَ مغارةٍ ، فانزِلْ ، واجعلْ عنانَه فى قَرَبُوسِه ، وخلِّ سبيلَه ، فإنه سَيدْخلُ المغارةَ ، أما أنتَ فانتظِرْه على بابِ المغارةِ خمسةَ أيامٍ ، وفى اليوم السادِس ، سَيخرجُ إليكَ شيخٌ أسودُ اللون ، يرتَدِى ملابسَ سوداء ، وهو ذو لِحيةٍ بيضاء مرسلةٍ إلى سُرتِهِ ، فإذا أقبلَ عليك . فقبِّل يدَه ، واضْرَعْ إليهِ باكياً متوسِّلاً . فإذا سألكَ حاجتَك ، فناولْه هـذا الـكتاب ، فإذا أخذهُ تركَكَ مكانَك ودَخَل ، وعليك حينئذ أن تَنْتَظِرَه خمسةَ أيامٍ ، فإن خرجَ إليكَ فى اليوم السادسِ ، فأبْشِرْ بالخير ، وبلوغِ الأرَب . وإن خرجَ إليكَ أحدٌ من غلمانه ، فإنه لا محـالةَ قاتِلُك ، وذلك أمرٌ دونَه حجُبُ الغَيْب ، فلا تَدْرِى أشر أُرِيدَ بك ، أم أرادَ الله بك رشَدًا ، فإن أردتَ بعد هذا ركوبَ المخاطِرِ ، فأنت وما تُريد . وإن صرفْتَ الهمَّ عما تَطْلب ، حفاظًا على نفسِك ، فإنى أصحبُك إلى بناتِ أخِى ، وهناك يَرْدُدْنَك إلى أمِّك وبلدِك سالما ، فقال حسن البصرى : لنْ أبرَح السَّعى حتى أبْلغَ أمنيَتِى ، أو تبلُغَنِى مَنِيَّتِى ، واللهُ تعالى يتولَّى الصالحين ثم ودَّعه الشيخُ عبد القدوس ، وأوصَاه ألا يَعْصِى له أمرا ، أو يُهمِل نُصحا .



البنات الطيور

(٧)

وطار به الحصان عشرةَ أيامٍ ، رأى فى آخرِ يومٍ منها شبحاً حالكَ السواد ، سدّ جسمُه ما بَيْن المشرقِ والمغربِ ، فصهَل الحصانُ من تحتِه . فألقَى خيولا كثيرةً من حولِه ، فلم يَثْنِ عزمَ حسن البصرى ما ساوَره إذ ذاكَ من رُعبٍ وفزَع ، وسارَ حتى كانَ ببابِ المغارة ، فنزل وربَط عِنان الفرسِ بقَربُوسه وتركَه ، فدخل المغارَة ، وانتظرَ هو ببابِها ، منفّذاً أمر الشيخ عبد القدوس ، وبعد خمسةِ أيام قضاها يترقبُ ، خرجَ إليه الشيخ أبو الريش ، فى سوادٍ من اللّباسِ ، ولما سألَه حاجتَه ، ناولَه الكتاب ، فأخذَه وغادَره إلى داخِل المغارةِ ، وارتقبَ حسنٌ خمسةَ أيامٍ ببابِها ، وفى فجرِ اليومِ السادسِ ، جاء الشيخُ أبو الريش فى ثيابٍ بيضٍ ، ودخلَ به المغارةَ ، فتحركَ كامنُ السرورِ فى نفسه ، لانتعاشِ الأمل عنده .

ولمْ يزالا سائرَيْن نصفَ نهارٍ ، حتى وصلاَ إلى باب فولاذِىّ متينٍ ، فأقبَل الشيخ أبو الريش وفتَحه . ونفذا منه إلى دهليز ، عقد سقفه بحجارةٍ منقوشةٍ بالذهب ، ودأبا فى السير حتى وجدَا أنفسهما أمام قاعةٍ ، مبسوطةِ الأرْجاء ، فسيحة الجنبات ، يزين وسطَها بستانٌ أزْهر ، جمعَ من ألوانِ الشجرِ ، وصنوف الثمرِ ، وضروبِ الزهرِ ، ما فيه متعةٌ لكل ذِى حسّ وبَصرٍ تغرّدُ فوقَ أفنانِها الأطيارُ ، مسبحةً بحمد الله الواحدِ

القهارِ ، ولها أربعةُ أواوين متقابلة متواجهة ، وبكل إيوانٍ فسقيةٌ ، قامَ على كلِّ ركنٍ منها تمثالُ سبعٍ من الذهب ، وبكل إيوان أيضاً كُرْسيٌّ ، جلسَ عليه شخصٌ بيده كتابٌ ، وأمامَه طلبةٌ يقرءون فى كتب بأيديهم ، وبه مجامرُ من ذهب ، يتصاعَدُ منهـا دخان طيبُ الرائحةِ منبعث من بخور يتقلَّبُ على نارٍ حاميةٍ .

ولما دَخلا عليهم ، قامُوا إليهما ، وحيُّوهما تحيةً طيبةً ، فأشارَ إليهم الشيخ أبو الريش أن يَصْرِفُوا الطلبةَ ، فانصرفُوا ، ثم جلسَ أربعتُهم بين يديه ، وسألُوه عن هذا الشاب الذى معَه ، فأشارَ إليه أن يُحدِّثهم ، ويقصّ ما كان من أمرِه عليهم ، فلم يَترُكْ حسنٌ البصرى شيئاً إلا قاله ، حتى انتهى إلى تلك الجلسة . وإلى هذا الجمعِ ، فالتفتُوا إلى الشيخ أبى الريش وقالوا : يا شيخ الشيوخ ، إنكَ ملجأُ المساكين ، وملاذ المستَضْعَفِين ، وهذا شابٌّ برّحَ به الضعْفُ والمسكَنة . وبلغنا منه الحدُّ الذى يستأهِلُ به عونكَ وغوثَك ، فأضِفْ إلى فضائِلك ومعروفِك فضلاً كبيراً بمعُونةِ هذا الشاب ، على إرجَاع ولديه وزوجِه ، فقال الشيخ أبو الريش : يا إخوانِى ما رأيتُ إنساناً يُلقِى بنفسه إلى التهلُكةِ ، ويضعُ عنقَه بين شِقَّى مقصِّ الفناء ، ويطلبُ شيئاً غيرَ ميسورٍ لأحـد ، مثل هذا الشابِّ ، وأنتُم تعلمونَ جزائر واق الواق وأنّ من يَبْتَغيها كمن يَبْتَغى نفقاً فى الأرض أو سُلّماً فى السماء ، وأن أصحابَها أشدُّ الناسِ قوة ، وأكثرهُم عَديداً وعُدة ، وأنه يرُوم بنتَ الملكِ الأكبرِ ، وهى فى مُواطِنِها أمنَعُ من

عُقابٍ ، فكيفَ تَدنُو لمستَضْعفٍ كهذا الشاب ، ؟ ! فقالوا : يا شيخ الشيوخ ، إن مَن قتَل نفْساً فكأنما قتَل الناسَ جميعاً ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعاً ، وهـذا الشابُ شفَّهُ الوجْدُ ، وأضْنَاهُ فِراق زوجِه وولَديه ، وهو لا محالةَ هالكٌ إن لَمْ يجذِم بَيْن يَدْيه فَنحِّه عن الهَلاكِ ، وأحْي نفسه بيوم التَّلاق ، وأكرم الشيخ عبد القدوس بتَنْفِيذ رجائِه فيك ، وتحقيق مطمَعِه على يديك ، فقال : ما علَيَّ إلا أنْ أبذُلَ ما لدَيَّ من طاقةٍ ، متوخِّياً وجُوه الإحسانِ والإخلاصِ والحكمة ، والأمرُ بعد ذلك لله وحدَه ، ثم كتبَ كتاباً وختمه ، ودَفعه إلى حسنٍ البصرى ، ومعَه خريطةٌ من أدم فيها بَخور ، وقال إذا اعْترضَك من العقَباتِ ما يحملكُ فى حاجةٍ إلى مَعُونتى ، فاحرق شيئاً من البخور واذكرنى ، فإنِّى أحضرُ إليك من فوْرى ، ثم أمر أن يحضِروا له عِفريتاً طياراً ، فلما حضَرَ سالهُ عن اسمِه ، فقال : عبدُك دهنش بن فقطاش ، فقال له ادْنُ منى ، فوضع الشيخ فمه على أُذُنِه ، وصبَّ فيها سِرّا ، فحركَ العفريتُ رأسَه ، ثم التَفت الشيخ إلى حسنٍ ، وقال : قُمْ واجلس فوق كَتِف هذا العِفريت ، فإذا ارتفَع بك إلى السماء ، وسمعت تسبيح الملائكةِ ، فلا تَنبِسْ ببنتِ شفةٍ ، وإلا هلكْتَ وهلك العِفريتُ معك ، فإذا وضَعك فى مَوْهِنٍ من الليل ، على أرضٍ بيضاء فامْشِ وحدَك عشرةَ أيام ، فإذا وصلْتَ بعدها إلى بابِ المدينةِ فادخلها ، وسَلْ عن مَلِكها ، فإذا كنْتَ بين يدَيه ، فقبِّل الأرضَ وسلِّم ، و ناوله هذا الكتابَ ، وافعل

ما يُشيرُ به عليك ، فقال حسن : سمعاً وطاعة ؛ وسيكون ذلك منّى على خير ما وصَفت .

(٨)

كان ذلك الملكُ ملكَ أرض الكافور ، واسمُه حسون . وعندَه من الجنُود ما تَضيقُ بهالدنيا ، فلما مثَل حسن البصرى بينَ يديهِ ، سألهُ عن حاجَتِه . فقبل الكتاب وناولَه إياه . فلما قَرأه الملك حسون هزَّ رأسَه ، ثم أمر أن يُؤْخذ حسن البصرى إلى دار الضِّيافةِ . وهناكَ مكثَ ثلاثةَ أيام عزيزاً مُكرما ، وفى اليوم الرابع كان بيْن يدَى الملك حسون ، فقال له : أنتَ تبغِى جزائر واق الواق ، ودُونَك مخاطرُ كثيرة ، فتدَرعْ يا ولدى بالصَّبرِ الجميل ، فى جلَد ورباطةِ جأشٍ وثباتٍ ، وسيكون الخيرُ لك بعونِ الله تعالى ، وعما قريبٍ ستأتِى مراكبُ من واق الواق ، لتَحملَ بضائعَ إليها ، فإذا جاءت أنْزَلتُك فى واحِدةٍ منها ، ووَصيْت بك ملاحِيها ، ليُنزلُوكَ فى تلك الجزائرِ ، فإن سُئِلتَ عن اسْمِك ، فقل : إنى صِهرُ الملك حسون ، صاحبِ أرض الكافور ، ولا تُطلِع أحداً على شىء من أمرك ، وستجدُ على شاطِىء البحر من الجزيرَة ، أرائِكَ كثيرةً مبثوثةً ، فاجْلس تحتَ واحدةٍ منها ، كامِناً مختفِياً ، فإذا جَنّ الليلُ ، وجاءت الجنودُ من النساء ، فامْدُدْ يدك ، وأمسِك صاحبَة الأريكةِ ، التى كمَنْت تحتَها ، واستنْجِد بها ، فى بُكاء وضراعةٍ ، حتى تملكَ عليها

عَطفها وغَوْثها ، فإذا أجارَتْك فُزْتَ ونجوْتَ ، وهذا ما أستَطيعُه لكَ ، والله يتولَّاكَ وَأمرَكَ .

سافرَ حسن البصرى ، ونزل الجزيرَةَ ، وكمنَ تحت أريكةٍ من أرائِكها ، لا نظير لها مِنْ بينها ، ولما غَشِى الليلُ ، رأى جنوداً من النساء ، كأنهن الجرادُ المنتشِر ، سيوفُهن فى أيديهن ، ودروعهُن الزردية فوقَ صدورهن ، ولما جلَسْنَ على الأرائكِ ، أمسكَ ثوبَ التى جلَستْ على أريكتِه ، وجعل يستَنزِل حنانها ، ويستمِطر رحمتَها ، ضارِعاً إليها أن تُؤمِّنَه من خَوْفه ، وتُنزِل عليـه سكينتَها ، وتؤيدَه بروح منها ، فنادَتْه : أن يأيها العائِذُ المسكِين ، لك منّى الأمان ، ولك علىّ الحمايةُ والصّوْن ، فاخرُج من مَكْمَنِك ، وقُلْ ما بدا لَك ، فخرجَ إليها ، وأكبّ تقبيلا ولثْما على يَدَيْها مستصرِخا إياها ، فسالَ قلبُها رحمةً وحنانا ، وقالتْ فى نفسها : قد يكونُ لذلك المسكينِ شأنٌ خطيرٌ ، ألقَى به فى مزَالِق المِحَن ، ودفعه إلى مَهاوى التّلفِ والإحَن ، فلأعتَصِم بالرَّوِيّة ، ولا أتعجّل فيـه الحُكْم وتقرِيرَ المصير ، وأمرتْهُ أن يَنزَوِى تحت الأرِيكةِ إلى الليلةِ التالِيةِ ، فقبّل يَدَيْها ، وغابَ فى أريكتِه عنها ، غيبةً حائرةً ، لا يدرِى ما الله فاعلٌ به ، فبات شاخصَ البصر ، شاردَ الفِكر ، لقلْبِه من الرُّعبِ وجِيبٌ يكادُ ينِمّ عليه ، وبينَما هو على هذِه الحال ، إذ أقبلتْ عليه الّتِي استجار بها ، فناوَلَتْه حُساماً ورُمْحا ، ودِرْعا زردية ونطاقاً ، وقالتْ : احرِصْ على التّخفى إلى الأجل المعْلوم ، ونكَصَتْ على عقِبَيْها

قافلةً ، فظنّ أنهـا تَبْغى أن يتقلد عُدَد المسْـكر من النِّساء ، حتى يَخْتَبِئَ فى زِيِّهن ، ويَظُنّ رائِيه أنه مِنْهن ، وكذلك فَعلَ . فلما جنّت الليلة المعهودَة ، غصّ المـكانُ بالمسكر من النِّساء ، فزَجّ بنفسه فى غِمارِهن ، وحاكَاهُن فيما يَقُمن بهِ من عملٍ ، ولما انشقّ ظلامُ الليلِ عن نور الصبْح الساطِع انصرفْن إلى خيامِهن ، فانصرفَ معهُن ، وهُنَاكَ دخلتْ كلُّ واحدةٍ خَيْمتَها ، ودخل هو أيضاً خيمةً منها ، فكانت خيمةَ التى عاذَ بها واستصْرخَها ، فألقى سلاحَه ، وألقت سلاحَها ، ورفَعتْ نِقابَها ، فبدا وجه عجوز تحمل مائة عام أو تزيد ، وفى صوتٍ هادئٍ لا تنمّ نبراتُه عن وجهةٍ معلومة ، سألت الشاب البصرى : كيفَ وصلتَ إلى هذه الجزيرة ؟ ولأىِّ أمرٍ ألقيتَ بنفسك إلى التهلـكة فيها ، واستَ من أهْلِها ؟ فشفَّ كلامُها فى وَهْمه عن فُتور ساورَ أمَلَه ، فقال متضرعاً : بحق ما أنا فيه من ذُلّ الغربةِ ، وضِيقِ الوحدةِ ، وضَعفِ المُنّة ، وفقدِ الحيلة ، وما أنْتِ عليه من عزّ العشيرةِ وكثرةِ الأعْوانِ والجماعةِ ، وشدةِ البأسِ والقوةِ ، ونفاذ البَصيرةِ أن تَشُدّى ما وَهى من بُنيان قَلْبى ، وترجعِى إلىّ ولَدَىّ وزوْجِى . فقالت : وما شأنُ ولَديك وزوجك بهذه الجزيرة ؟ فقصّ عليها ما أصابه ، وقال ألستُ الآن وأوْلادى جديرين بعطفِك ، ووضع آمالِنا بين يديك ؟ فقالت : ولقد أجرتُك برّاً بكَ وأهلِك فهدّئْ روعك ، وطامِنْ من حزْنِك ، وأبشرْ بولديك وزوجك ، إن شاء الله تعالى .

وكانت تسمى هذه العجوز « شواهى » وهى وزيرةُ المِلكة ، ولها

عليها فضلُ القِيام على تربيتها هى وأخواتها ، ولم يَنس لها أبُوهن هذا الفضل الجزيل ، ثم قالت : إن زوجَك وولدَيك فى الجزيرةِ السابعة ، وبينَك وبينَها الآن مسيرةُ سبعة أشهرٍ ، تلقى خلالها مشاقَّ ومتاعِب ، وأنت الآن تبْخَعُ نفسَك ، وتسعى إلى حتْفِك بقدَمك ، وقد لا تستطِيعُ لما تلقاه حمْلا ، فتنوء تحتَه ، وتصبح أنتَ وأمس الدَّابِر سواء ، وإبقاء على شبابِك الناضِر ، أرجُو أن تفكِّرَ مليًّا فى أمْرِ رجوعك إلى وَطنك ، وعليَّ ذلك إن اخترتَه ، وعلى الله أن يعوِّضَك ما افتقَدته من أهْلٍ وولد ، فقال : أما العودَةُ إلى وَطنى ، فلا سبيل لها عندِى ، وأما السَّعْى دأبا لأحقِّق فى نَفْسِى أرَبا فذلك كلُّ همِّى ، وإنْ تجرعتُ من أجلِه ريبَ المنون ، فقالت : من حفِظَك فى أُولاك يحفظُك فى أُخراك ، وأصدَرتْ أمرَها أن يُدَق طبلُ الرحيل .

سار العسكر ومعه « شواهى » وحسن البصرى فى صُحبتِها ، ولكنه غارقٌ فى بَحرٍ لجيٍّ من الأفكار ، يغشاهُ موج من الهواجس ، من فوقِه موجٌ من الوساوس ، ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ ، حتى وصلُوا إلى جزيرة الطيورِ ، وهى أُولى الجزائر السبع ، فالتَوى على نفسِه ، وانكمش فى جلْدِه ، لهولِ مارَأى ، من كثرةِ الطيور وضخَامتها ، واختلافِ أشكالِها وألوانها ، وماسَمِع من صخبٍ يخضن فى لُجَجِه ، ويُدافِعن موجاته ، فأسلَم وجهه إلى الله ، وسألَه أن يمنحَه الثباتَ والنجاة ، وما زالوا دائبين فى الرحيل ، تدفعهُم جزيرة إلى أخرى ، حتى نزلوا بأرض الجان ، فرأى

أشباحاً منكرَة ، هؤلاء طالُوا وارتفعُوا حتى حَسِبَهم عمداً تُمسِكُ السماء أَنْ تقعَ على الأرض وهؤلاء غلُظوا وضَخمُوا حتى كادوا يسدُّون الأُفق ، وينْلِقُون أفواهَ السبل ، وهؤلاء ترمِى عيونُهم بشررٍ كالقصرِ ، فأهطع رأسه ، وقال فى نفسه ا سواء علينا أجزعنا أم صبْرنا ما لنا من مَحِيص ، ولكن « شواهى » أسرت إليه بما ثبَّتَ قَلْبه ، وكشفَ عنه هلَعُه ، حتى نزلُوا فى سفْحِ جبلٍ شاهق يُطل على نهرٍ عظيمٍ ، يداعبُه عليلُ النسيم ، فنصَبُوا خيامَهم ، وأعدت « شواهى » لحسن البصرى أريكةً على شاطِئه مرصعةً بالدر والجوهر ، وصافى الذهب الأحمر ، وأصدَرت أمرَها إلى العسكر — ولم يكن العسكر إلا بنات أبكارا — أن يتجردْن من الثِّياب وينْزِلن فى النهر عاريات ، يغْتَسِلن ويسبَحنَ ويمرحْن ، وهو جالسٌ مَكانه ، يخفِ وجهه بلثامٍ وهى تأمره أن يتفقَّدَهُن بنتاً بنتا ، وطائفةً طائفة ، عسى أن يجدَ فيهن زوجه ، ولكنه لَمْ يلمَح لها أثرا ، فأرادَته على وَصْفها ، فعرفت أنَّها بنتُ الملك الأكبر ، حيث جبل « واق الواق » وهذا الاسم أطلِق على شجرةٍ هُناك ، أغصانُها كأنَّها رءوسُ الأناسى ، فإذا طلَعت عليها الشمس أو غربت صاحتْ تلك الرءوس : واق واق سبحانَ الملك الخلاق .

أطلقت « شواهى » سراحَ البنات ليُقِمْن فى البلدِ المجاور ، أو على شاطِئ النهر ، أما هى فصحِبَتْ حسناً البصرى ، ودخلَتْ به ذلك البلدَ الذى تُقيم فيه الملكة نور الهدى ابنة الملكِ الأكبر ، وأحلّته مكاناً خَفِياً ،

وتعهدَتْه هى نفسُها تُطعِمُه وتَسقِيه ، وتُمْعِنُ فى صرف الأنظار عن هـذا المـكانِ الذى يَأْوِيه ، حتى لا يَشعر بوجوده ماردٌ ولا جانّ ، مخافةَ أن يَطير إلى الملـكة خبرُه ، فيكون فى ذلك هلاكُها وهلاكه . وكانت «شواهى» كما علمتَ قد أقامها الملك الأكبر على تَربيةِ بناتِه السبع ، ومنهن الملـكةُ نور الهدى ، فلا تزالُ نور الهدى حافظةً لشواهِى بالِغَ عَطْفِها ، وفضلَ تربيتها ، وحق أُمومَتِها ، فتبَوِّئُها مِنْ نفسِها مبوأً كريمًا أسوةً بأبيها الذى يُعِزُّها ، ويذكُرُ أياديَها .

دخلت « شواهى » على نُور الهدى فى قصرِها ، فقبّلت الأرضَ بين يَديْها ، وتلقتْها الملـكة لقاء جميلا ، وأجلَستها بجانِبها ، وهنأتْها بسلامةِ الوصول ، وهناءة المقام ، وسألتْها عن سَفْرَتها هذه فقالت : إنها مُباركةٌ ، وزادها بركة أنى جئتُكِ بأمْرٍ عظيم ، ليس له إلا نُفُوذك وسَطْوتك ، وبصرُك بالأمْر وحكمتِه ، وأملى عظيمٌ أن يكون لَكِ فضلُ قضَائِه ، ونعمةُ أدائه ، فقالت : وما ذَاك ؟ فأنبأتْها قصةَ حسن البصرى إلى أن جاءت به إلى مَدينتِها ، وأتْبعتها بشىء مِنْ وصف جَماله وقوتِه ، وثباتِه ورباطةِ جأشِه ، وأنه استجار بها فأجارَتْه .

فأطرقَت نور الهدى غاضِبَةً آسفةً ، ثم رفعتْ رأسَها قائلة : أبلغ من عُقُوقِك أن تأتى بالذكورِ من الأُناس إلى جزائِر « واق الواق » غير خائفةٍ بطشِى وفتكى ؟ ورأس الملك الأكبر أبى لولا مالكِ من حق التربية

لقتلتُك وإياه الساعةَ شرَّ قتلة ، حتى تكونا للناس تذكِرة وعبرةً ، ولكن علىّ به الآن حتى أراه .

فذهبتْ « شواهى » ، وهى تتَملمَل تملْمُل السليم ، وقالت : قمْ إلى الملكة فلا تدرِى ؛ أأنت الآنَ على شفا جرفٍ هارٍ من أجلك ، أم على صفوان ثابت لا يتزلزَلُ من تحتِك ؟ فقام مسْلِماً وجهَه إلى اللهِ سائلاً إياه أن يَلطُف به فى القضاء ، ويقيه شر البلاء .

ولما خَلُص إلى الملكةِ حيَّاها ، وقبّل الأرضَ بين يَديْها ، فأشارتْ إلى « شواهى » أن تتحدّثَ إليهِ حتى تستَمِع لحديثهِ فيتم عن شىء من أمره ، فقالت : إن الملكة تحيِّيك بأحسن من تحيَّتكِ ، وتسألُك عن اسمِك وبلدِكَ ، وزوْجِك وأولادِكَ ، فقال — وقد استجابَ الله لدُعائه — فألهمه ثباتَ الجنان ، وطلاقة اللسان :

أنَا حسن البصرى ، ولا أعرِفُ لزوجى اسْماً ، أما ولَداى ، فأحدُهما يدعى ناصِراً ، والآخرُ يسمى منصُوراً ، ثم جعل يقصّ عليها ما جَرى من أمرِ زوجِه وطيرانِها بأوْلادِه ، فسألتْه : وهل قالتْ شيئاً وقت أن طَارَتْ ؟ فقال : نادَتْ والدَتِى قائلَة : إنّى آسفة لِفراقِك ، وإذا جاء ابنُك واشتَهى التلاق ، فليَجئْنِى فى جزائِر واق الواق .

فَهزَت الملكة رأسَها وقالت : لو كانَت لا تُريدُك ما قالت هذا المقال لأمّك . ولولا أنها توَدّ لقاءك ، ما عرفتْك بمكانِها ، ولا أرادَتْ لك أن تجيئَها ، فقال : يا ملكة يَفيض العدْلُ والرحمةُ من بيْن يديْها ، أستجير

بالله وبكِ أن ترحمي غربتي ، وتساعديني على الالتقاء بأولادي وزوجي ، وتحتسبي أجرك عند الله تعالى .

فقالت : بعد سكتة قصيرة : لقد رثيتُ لحالك ، وقبلتُ رجاءك ، وسأعرض عليك كل بنت في مدينتي . فإن عرفتَ زوجك نعمتَ بها ، وإلا كانَ قتلكَ أمراً مقضياً ، فقال : رضيتُ بما قضيتِ ، والله ولينا ونعمَ النصير .

عرضت عليه بنات المدينة ، حتى جواري الملكة في قصرها ، فلم يجدْ فيهن زوجه ، ولا مَن كانت قريبة الشبه بزوجه ، فغضبت الملكة وقالت : الآن حلّ قتلك ، وفشل مطمعك ، وخابَ سعيك ، فردت شواهي ، وحقّ التربية ألّا تعجلي ، لقد سمع بعدلك ورحمتك ، فدخل مدينتك ، واتخذ من حلمك وكرمك ، معصمه وملاذه ، وقد طعِمَ زادك ، وسُقيَ شرابك ، فلهُ حق الأمان ، ولولا أنه جديرٌ بعطفك وعونك ، ما أجرتُه ودخلتُ به مدينتك ، ولم تبق من نساء المدينة إلا الملكة الكريمة ، فأريه وجهك ، ثم انظري ماذا تأمرين ، فقالت أنا أعلمُ بنفسي ولا فائدةَ من رؤيته لي ، فقالت شواهي : هـذا ما يبدو لنا ، ولعلّ في الغيب شيئاً لو اطلعنا عليه لتبدّل الحالُ غيرَ الحال .

فلما كشفتْ عن وجهها ، وأضاءتْ عينا حسن بلألائه ، وقعَ مغشياً عليه ، ولما أفاق قال : إن لمْ تكوني زوجي فأنتِ أشبهُ النساء بها فضحكت الملكة ، حتى استلقتْ على ظهرها : ثم أمرت « شواهي » أن

تُرجِعَه إلى مكانِه ، وتَقُومَ هى نفسُها بخدمتِه ، وفحص سجاياه وخُلُقه ، فإن كان من أولي المروءة ، الذين لا ينسَوْن الفضلَ ولا يكفُرون بالنعمة ، قضينا حاجتَه ، وجمعنا بينَه وبين أولادِه وزوجِه ، وإلا كان لنا فيه رأىٌ غيره .

أودَعتْه « شواهى » منزلَها ، وأوصَتْ به جواريها ، ثم رجعتْ مُسرِعة ، صدعًا بأمر الملكة .

وبعد هذا أنفذَتْ نور الهدى « شواهى » ومعَها ألفُ فارسٍ إلى أختِها منار السناء ، عند أبيها الملك الأكبر ، وأمَرتْها أن تأتى بولَديْها لتَنعم خَالتهما بهما أيامًا ، وقالت : إذا ما حصلت عليهما فقولِى لها : إن أختَك نور الهدى تودُّ رؤيتَك ، وهى فى انتظارك ثم ارجعى إلىَّ فى أقربِ فرصَة ، بحيث تُواصِلين السفرَ ليلاً ونهاراً ، واسْلُكى فى عَوْدتك سَبيلا غيرَ السبيل ، واحذرى أن يَعرفَ أحدٌ عن حسنٍ المصرى شيئًا ، وإنى أُقسِمُ لك بكل يمينٍ ألا أمنعَ أختى منار السناء مِن السفر مع هذا الشاب إذا ظهرَ أنه زوجُها ، وكانتْ أختها لأبيها ، وأصغر أخواتها السبع .

قامت « شواهى » بما أُمرتْ به ، وأحضرتْ الولَدَين ، وكان حسن قد أحاطَ بذلك عِلْمًا قبل سَفرِها ، فكان سرُورُه عظيما .

كانت « شواهى » عندَ مَنار السناء ، ولما أفضَت إليها برسالةِ أخْتِها نور الهدى ، حالَ لونُها ، وأطرقَتْ طويلا ، ثم نظرتْ إليها وقالت : إن قَلبى ليذوبُ حسرةً ، إذا ما تحدَّث إلىَّ أحدٌ فى شأن أولادِى ، فإنى

أخافُ عليهم من النسيمِ العليل إذا سَرى ، ولا أسمَحُ لأحدٍ أن ينظر إليهمْ أو ينظُروا إليه ، وهم محرُومُون من رؤيةِ أبيهم ثم سكتتْ قليلا وقالت : — ولـكنْ لا مانِعَ لدىّ من أخذِهم فإنما يُنقلُون من أمٍّ إلى أمٍّ ، ومِنْ حنانٍ إلى حنان ، وسألحق بهم سَريعاً .

سبَحت الملـكة نور الهدى بِقدُوم ولَدىْ أختِها فى فَيْضٍ من السرور والحنان ، فضمَّتهما إلى صدرِها ، وأجلستهُما على فَخِذيْها ، كلٌّ فى ناحِية ، وقالت إلى « شواهى » : احضِرى ذلك الشابّ الذى اعتصَم بدارى ، ونزل فى حِماى ، فلويْتُ عنه حدَّ الحسامِ إلى حين ، ليرَى هذيْن القمرَين النَّيِّريْن رؤْية تقرِّرُ مصيرَه ، فإمَّا إلى حياةٍ ناعمةٍ ، وإمَّا إلى فناء يَطمِسُ نورَ وجودِه وينسخ آيةَ حياته .

فقالت : إن المَغفِرَة لا تزالُ مجداً للمُلْك وقوته ، وهى لأبناء السبيلِ أوضَح حجة ، على سُمُو القدرَة ، ونَبالة الحكومة ، فإذا ما جاء ولم يَبِنْ أنهما ولَداه فهل لعفوْ الملـكة أن يردَّه إلى وطنِه سالماً ؟

فثارَ غضب الملـكة وقالت : أتظنِّينَ أن يقْتَحِم هذا الشابُّ أرضَنا ، ويطَّلِع على أحوالِنا ، ثم يَنْقلِب إلى أهلِه مسروراً سالماً ، يقصُّ على الناسِ أمْر وجودِه بيننا ، فيكون لنا من ذلكَ الخزىُ والعارُ ؟ والسماء وما بناها ، والأرضِ وما طحاها ، ونفسٍ وما سَوّاها ، إن لمْ يكونوا أولادَه فلأقتُلنَّه بيدِى ، وأمرَتْ عشرين فارساً أن يذهبُوا مع « شواهى » ويأتُوها بالشابِّ فى لَمْحِ البَصر .

وما كادَ حسن يلمَح ولديْه حتى صرخَ قائِلاً : ولداى . وتقدّم فى لَهفَةٍ إليهما ، ولكن صدمةَ السُّرورِ بلقائهما ، ناءت باحتمالِها أعصابهُ ، فوقع فى غشيةٍ قبل أن يَصلَ إليهما ، فتحركَ الولدانِ نحوَه ، وألقيا بأنْفسِهما فى حجْره ولما أحَسّهما أفاقَ وضمّهما إلى صَدره ، وانطقَهما الله الذى أنْطق كل شىء فجعل يُرَدّد كلٌ منهما : أبِى . أبِى . أبِى . ويمسحان بأيدِيهما الصغيرة على وجْهه تارةً ، وعلى صدرِه أخرى ، وهو يضمُّهما حتى كأنهما عُضوين من جسمِه : وبعد بكاء ساد المجلس ، لهذه الحالة المؤثّرة أيقَنتْ الملكة نورالهدى أنَّهُما ولداه ، وأن أختَها منار السناء زوجُه ، فاضطرمَتْ فى رأسها نار الغضَب والحمية ، وأخذتْها العزةُ بالإثم ، فأضمرتْ فى نفسِها شراً ، لم يخف على حَسنٍ ومن كانَ معه ، وأمرتْ بإخراجِه ، فجرّه الفُرسان إلى مقرّه ، وحالُوا بينه ، وبين « شواهى » فلم يَعدْ يأتنِس بها ، وضاقت الدنيا فى وَجهِه ، وأيقَن بهلاكٍ مَحتومٍ .

أما مَنار السناء فقد أعدّتْ عُدتَها للرحِيل ، صباحَ الغدِ من يومِها ، ولما أشْرقَت شمس ذلك اليوم ، ذهبتْ إلى أبِيها ، لتُلقِيَ على يديه قبلةَ الوداعِ ، ولتأخُذ زادها من دعائِه ورضاه ، فأجلَسها بجواره وقال : إن قَلْبى لا يُحس اطمئْنانًا لهذَا الرحِيل ، وأخشَى أنْ أُصابَ بمكروهٍ فيك ، ولهذا فإنّى أميلُ إلى الاستغْناء عن هذِه الزيارة ، وفى الأيام المقبلةِ متسعٌ لمثْلها ، ويزيد فى ميلى إلى بقائِك ، ما رأيتُه فى منامِى الليلة ، فقد رأيتُ أنّى دخلتُ كنْزاً كلُّهُ جواهر ولآلِئ ، فأعجبَنى منها سبْع جواهر ، تناولتُ إحدَاها ، وكانتْ

ممتازةً بصغرها ، وروعة جمالها ، ولمّا خرجْتُ ، جعلت أقلّبُها فى كفّى معجبًا بها وبجمالِها ، فانقضّ عليها طائرٌ واختطفَها ، وأرْجَعها إلى مَقرّها ، وكان فزَعى لهذا مِنْ عوامل يَقظتِى وانتِبَاهى ، ولقد جَمعْتُ يا بُنيّتى العزيزة المؤوِّلين ، وسألتهم تأويلَ رؤيايَ فقالوا : سيخطفُ أحدُ الناس صُغرى بناتِك ، إلى حيثُ لا تَراها ، ولا تستَطِيع لها مَرَدًّا ، ولهذا فإنى على غيرِ اطمئنانٍ من هذا الرّحيل ، فقالتْ منار السنا : أنسيتَ أيها الوالد الكريم ، أنكَ الملك الأكبَر يدين لكَ ما فى جزائرِنا مِنْ شياطينِ ومردَةٍ ، وجانٍ ، وأنها محبوسةٌ علَيْنا ، لا يَطأ أرضها غريبٌ ، وقد استعدّت أختِى لضيافتى ، وترتقِبُ حضورى إليها ساعة فى إثر ساعة ، وهى لم تَرنِى أربَع سنوات ، وأخشى أن يُزعِجَها تأخُرِى ، وتذهَبَ المخاوِفُ بها كلّ مذهَبٍ من أجْلِى ، فلا تَخفْ ولا تحزَنْ ، فقال : فى سلامةِ مِن الله وأمْنٍ ، وبعث معها جنودا يصحبُونها فى سفرها غُدُوًّا ورَواحًا .

كانت منار السنا تعتقِدُ أن أختَها ستُكرِمُ مَثْواها ، وتستخلِصُها لنفسِها مدةَ مُقامِها ، فتمكنَ لها فى قَصْرِها ، تتَبوّأ منه حيثُ تشاء ، ولكن القصرَ لم يكُن لها حرَمًا آمِنًا كما توقّعتْ ، فلم يكَد يراها ابناها حتى صاح كل منهما مُرَدّدًا أبِى . أبِى فاغرورقت عيناها وقالت : أين أبوكما ! وأنى لكما رؤيته ؟ يا ليتَه كان حيًّا ، فأمهدَ لكما السّبيل إليْه ، والاستمتَاع بعطْفه ، يا ليتَنى كنتُ تُرابًا قبل أنْ أحولَ بينَكما

وبينَه ؟ ليس على الله بعزيزٍ أن يمْحُو فُرقَتنا ، ويجمع شملَنا ، فنُسقَى فى ظلال الألفَة ماء غَدقا ، ونعيش عيشا صِدْقا .

وما كادَت تنتَهى من قولِها حتى قالت أختُها نور الهدى: كنا نكذِّب هذا الشابَّ المسكين ، والآن قد أتانا اليقين ، فقد استخَفَّكِ الطبْع فخنتِ أباكِ وأهلَكِ بالغَيْب ، وراودته عن نفْسِه ورُزقْتما هذين الولدَين سفاحاً أو حلالاً مُباحاً ، ثم فررتِ بهما إلى أبيك مذنبةً آثمة ، وإذا كنتِ قد اتصلت به على سُنة اللهِ ورسولِه فكيف تُنادِرين منزلَه ، وتوجشين دارَه ، وتفجَعينَه فى أوْلاده ، وتُجرِّعينَه صعابَ الفِراق مراً أليما ، وإذا كنتِ قد نشزْتِ منه كرهاً له ، فكيْف تريدينَه على أن يقْتفِى آثاركِ ، وتُرشِدينه إلى جزائرنا ، فتنتهِكى حرمتَها بقدومه ، أو تَزُجِّى به فى مهالِك لولا قولتك كان فى غِنًى عنها ، ومنأًى منها ، لقد حضر وأفْضَى إلينا بكلِّ ما جرى بينَك وبينه ، وسأذِيقُكِ وإيّاه العذاب الأكبر ، حتى تلقيا على يَدىَّ حتْفَيْكما ، والله يتولّى ولديكُما من بعدكُما بالرعايةِ وجميل العزاء .

ثم أمَرت فألْقِى بها فى السِّجن ، وأوصتْ أن تقاسِى فيه ألْوان المتاعِب والشقَاء ، وكتبتْ إلى أبيها مستنكرةً فعلتَها ، طالبةً رأيه فيها ، فأجابَها من فَوْره : أن قد تركْتُ لكِ الحكم ، فافعلى ماتشَائِين ، ولا مُعَقِّب لحكمِك ، ولا تثْريب على قضَائِك ، فاستَبْقَتْهما تحتَ وابلٍ من القَسوةِ والاضطهاد ، والضربِ والتعذيب .

استيأسَ حسنٌ من هذه الحال، ففكرَ فى الهَرب، والنجاةِ بنَفْسه، مخلفاً فى القصر حياتَه وأمَله: أين شواهى لتأخُذ بيدِه، وتستخلصَه لنفسه ؟ لقد غَضِبت عليها الملكةُ، وأرجعتْها إلى حيثُ كانت من أمرِها، فركَنَ إلى الله الذى لا يُعجِزُه شىء فى السموات والأرض، واستعاذَ به من هذا البلاء المُقيم.

وذاتَ ليلة خيّم السكونُ على القَصْرِ ومَنْ فيه، فأطَلَّ برأسِه من باب حُجْرته، فوجدَ الحراسَ فى سُبات عميق، فمَشى يَجُسُّ الأرضَ بقدمِه، كأنَّه آسٍ يجسُّ العليل، وتسرَّبَ إلى بابِ القصر حتى وصَلَهُ، فخرجَ منه لا يلوِى على شىء من خَلْفِه، وركب متنَ الرِّيح حتى كانَ على شاطئ النَّهر الذى يَجْرِى من تحتِ الجبَل، فنَقَل نفْسَه من المظالم التى كان فيها إلى حوادثِ الغيْبِ التى لا يَدْرِيها، وفى الصَّباح مشَى فى مناكبِ الأرض، يبْتغى من فضل الله ورزْقه، فعَثر بشابَّيْن حَدَثَيْن يتنازَعان، فاختَصما إليه، فطلب إليهما أن يُبِينَا عن خُصومتهما، فقالا: هذه قلَنسوة الخفْية، مَن لبسها اختَفى عن أعيُن الناس، فلا يَراه إنسٌ ولا جان، وهذا قَضِيبٌ إذا ضرب به الأرض، حضَرَ الجانُّ والمردَة، وكانوا طوْعَ صاحبِه، يسخّرُهم حيث يشاء، وَرِثناهُما عن أبينا، وكل منا يَبْتَغى القضِيب، ولا يَرْضى إلا أن يَكونَ هو نصيبه، فقال: أمرُكُما يسيرٌ، سأرْمى بهذا الحجَر بعيداً، ثم تجريان إليه، فمن سبَق وأخَذَه كان القَضيبُ من نَصِيبه، فسلمانى القَلَنسوةَ والقضيبَ، وخليانى أُنفذ هذا الحكمَ بينكما، فقالا:

نعمَ ما حكمت ، وكان قد قال فى نفسه : سألبَس القلنسوة وهما يَجْريان ، وإن عادَا إلىّ ، ولم يريانى — كان قولُهما صحيحاً ، وإذ ذاك يَكون قد قيّض الله لى وسائلَ النجاة بزوْجى وأوْلادى .

فلما عادا من سِبَاقهما جمَلا يبْحثانِ عنه ، وهو بَيْنَهما ، فعرَف أن الأمرَ فى تُراثِهما كما قالا ، فقال فى نفسه : لا ضَير على إن انْتفعْتُ بهما ، وركبْتهما إلى تحقيق رغبتى ، وتخليصِ زوجِى وأولادِى من سجْنهم ، ثم أردّهما إلى هذين الشابّيْن ، واستقر رأيه على ذلك .

أما زوجُه منار السنا فقد لقِيتْ من أخْتِها ما لم تكُن تتوقعُه ، لا فى أحلامها ولا هواجِس نفسِها ، فطافَ عليها طائفٌ من العذابِ الأليمِ ، والاحتقار المهين ، والسخر المذِل ، واللّمزِ البذىء ، على غير خطيئة اقترفَتْها ، أو سيئةٍ اجترحَتها ، إلا أنها تزوجَتْ فأعقبَتْ ، وكان هذا الإيذاء الجاثم علَيْها صِقال عقلها ، وتمحيصَ غرائزها ، ورفع الغشاوة عن بَصرها ، فإذا ما خلتْ إلى نفسها جعلت تقول : هل يُعَد الزواجُ على سنةِ الله أمراً إدًّا ، وشيئًا نُكراً ، تضيع معه الكرامة ، وتُطِيفُ بصاحبِه المهانة ، وتصبُّ عليه ألوانَ الإيذاء صبًّا ، كأنه جَحد وكفَر ، وأعرضَ عن الإيمان وأدْبَر ، إن هذا لهو البلاء المبين .

أما زوجُها حسن فقد خَفَّ إلى قصرِ نور الهدى ، ومعهُ القلنسوة والقضيب ، مخالفا الشابّين فى أسَفِ عليهما ، وبحث عنه هنا وهنالك .

فلبسَ القلنسوة ودَخَل إلى زوجِه ، دون أنْ يراهُ أحدٌ من حرسٍ

القصر وخدمِه ، فبدَا لها وقطع عليْها حديثَ نفسِها ، وبشّرها بحسْنِ المخرَج ، وأنبأها أمْر القلنسوة والقضيب .

وكانت حجرتُها ذات نافذَة ضيقة تُطِل على ساحةٍ فَسيحةٍ خارجَ القصر ، فاتفقا على أن يَخرج بالقَلَنْسُوة ، ويلقيَها إليهـا من النافذةِ ، فتخرج بها ، ثم يَلبَسها هو ويدخل إلى ولديه ، فيحمِلهما ويفر بهما إلى زوْجِه التى تنتظره .

ونفَّذَا ما أبْرمَاه من أمْرٍ ، وعقدا عليه العزم .

رُفع إلى مسامِع نور الهدى نبأُ افتِقاد منار السنا وزوجِها وولديها ، فأصدرت أمرَها أن تقُوم طلائعُ الجيش مزوّدِين بعُددِهِم وأسلِحتِهم ، باقتفاء آثارهم ، والبحثِ عنهم أينَما كانوا ، وأن يَلحَق بتلك الطلائع جيشٌ تـكُون على رأسه .

وبينما كان حسن وأسرته سائرَين فى الفـلاةِ ، يَبْتغون الفِرار ، متذاكرِين ما حل بهم فى قصر نور الهدى من عنَتٍ وشِقْوة ، إذ حانت من حسنٍ إلى الخلفِ التفاتَة ، فألفى الأفُقَ قد سُدّ بعِثْيَرٍ ، يدْنُو منهم فى سُرعَةٍ جيش زاحِف ، جادّ فى زَحفه ، فظنّ أنه يطلبُهم ، وشاركتْه زوجُه هذا الحدس ، وما لبِثوا أن تبيّنُوه ، فطابَق ما ظنوا ، فسُقِط فى أيديهم ، وجلَسُوا مبهورِين ، مشدُوهين ، لا يجِدُون وسيلة تنجيهم .

تذكر حسن القلَنسوة فلبِسَها ، لتكون عاصمًا له من الوقوع فى يد رجال الملـكة نور الهدى ، فيَعود إلى سيرتِهِ الأولى من العذابِ الأليم ،

أو يلقى حتفه على يديها . وما كاد يلابسها ، ويأمن على نفسه — حتى هبّت في نفسه عواطف الأبوة ، وما تفرضه من إيثار وتضحية ، دفاعاً عن أفلاذ كبده وزوجه ، فنزعها عن رأسه ليقاسمهم بأساءهم ومصيرهم ، وما نزعها حتى تذكر القضيب وخدمه ، فضرب به الأرض ، فكان أعوانه من حوله ، يرتقبون الأمر بما يريد ، فأشار إليهم أن يقوموا بدرء ما يرونه من خطر يحيق بهم ، فقامت حرب سحرية ، لم يألفها من قبل إنس ولا جان ، ألقت الرعب في قلوب الجيش الزاحف ومليكته ، دون أن تصيبهم بمكروه ، وما ألقى أمره اليهم حتى رأت الملكة نور الهدى وجيشها ، جبلاً نتق من فوقهم ، كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع بهم ، فانكمشوا في جلودهم ، شاخصة إليه أبصارهم ، وغشيهم من الرعب ما غشيهم ، ولكنه ما لبث أن تحرك مبتعداً حتى انقشع ، فاستقرت قلوبهم في صدورهم استقراراً ضعيفاً حائراً ، وما انحسر عنهم الجبل ومخاوفه، حتى رأوا أنهم أحيط بهم من كل جانب ببحر لجي ، تعلو أمواجه حتى تحسبها عمداً ، تمسك السماء أن تقع على الأرض ، وهي تميل من أعاليها ، ليتصل بعضها ببعض ،على شكل قبة تضم بين جوانحها الملكة وجيشها ، فغشيتهم ظلمة ، إذا أخرج أحدهم يده فيها ، لم يكد يراها ، فقيدت كلاً منهم في مكانه ، وحبسته في حيزه ، يرجو عاصماً يعصمه ، ويجنبه ما عسى أن ينزل به في تلك الظلمة من بلاء أو فناء ، حتى إذا استيأسوا مكرهين ، واستسلموا جزعين ، أخذت الأمواج تنفرج عن نور



(ملوك الجن السبعة)

يتزايدُ ثم يتزايدُ، حتى عادَ كما كان، وما كادوا يتنفّسُون الصُّعَداء، وتجرِى دماؤُهم فى عُروقِهم، حتى انشقت الأرض هُنا وهناك عن أسهُم مِنْ نارٍ تذهبُ فى الجوِّ صُعُدا، إلى حَيثُ لا تَبلغُ الأعيُن مداها، ذاهبة فى جِهاتِ الجوِّ وأنحائِه، متداخلة، متشابكة، كأنها شجرَةُ الزَّقُّوم، طلعُها كأنه رءوس الشياطين، ولكنها لا تَلبَثُ أن تعودَ إلى مستقرِّها مِنْ بطن الأرض، ولم تكن قد أحدثت شرًّا، وهذه الأشجارُ المورقة المزهرة تمتدُّ أغصانُها، وتمتَدُّ فى ضخامةٍ مفزعة، تنطلِق عليها الرياحُ الهوجُ العاصِفةُ، فتميلُ بها هنا وهناك، كأنَّها عِصِى تهش بها على من فى الكونِ ليكونَ طوعَ أمرِها، وتحتَ إمرتِها، ثم لا تفتأُ أن تنكمِش حتى ترجِع الى سيرتِها الأولى.

هـذه الحرب السحريةُ العجيبة، حمَلت الملكة نور الهدى على أن تطلُبَ السَّلمَ من أختِها منار السنا وزوجها، فتبعَث الوفودَ إليها، عارضةً بغيتَها فى الصلح والسلام، فيلبِّيان الطلبَ، ويجمعُهم مجلِسُ السلام، وفيه تتحركُ الأخوةُ، وتسيطِر وشائج الدم، وروابطُ الرحِم، فتلتقِى منارُ السنا إلى زوجِها معاذِيرَ أختِها، وتفسرُ فعْلتها به وبها فى قصرِها، أنها دَفْعةُ الغيرَةِ، وسَورَةَ الحمِية، ولم تكُن عن بُغض أو كراهِية، ولكنها غضبةٌ للكمالِ أن يُمسّ، وفورةٌ للعرْضِ أن يُنال بأذًى، ومكانة البيت الملكى أن تخرجَ منار السنا على تقاليده، واعترفت المِلكةُ أنَّ أختها منار السَّنا لم تكن مخطِئةً فى زَواجِها، وأنها فَعلتْ ما يَجِب أن تفعلَه

كلُّ أنثى ، مِنْ أنْ تنشُدَ لها حياةً زوجيّة ، خُلِق لها الذكرُ والأنثى ، وتُمِدَّ الجماعةَ بالحياةِ والتّعمير .

وبعد سبعة أيام قضَوْها فى ضيافَة الطبيعة ، ينعَمُون بخالِص الوُد ، وعظيم المحبَّةِ ، منَحت الملكةُ أختَها هدايا فاخرةً ، ثم سلّمتْ ورجعتْ بجيْشِها ، بعد أن استوثَقَت من قُدرتِهم على السفر إلى بَغْداد فى يُسرٍ وراحة . ضربَ حسنُ الأرضَ بالقضِيب ، فكان أعوانُه من حوله ، فأمرهُم أن يُحضِروا إليه الشابيْن أنّى كانا ، وما هى إلا لفتَةُ الجيد ، حتى كانا بحضْرته ، فأكرمَ مجيئَهما ، وطمأنَهُما على تُراثِهما ، وشكر لهما ما لقيه من يُسرٍ وفرج بسببهما ، واستأذنَهما أن يستَخْدِم القضيبَ فى نَقْلهم جميعهم إلى قصر أخواته ، وهناكَ يرد إليْهما قضِيبهما وقلنسوتَهما ، فلبّيا رغبتَه مغتبِطَين شاكرين .

وكان ما اتفقُوا عليه ، وهناك فى مجلس حافلٍ ، منه ومن أسرتِه وأخواته تسلّما تراثَهما ، ومضيا إلى سبيلهما

وكان فرحُ الأخواتِ بهذا الفوزِ العظيم شامِلا ، وأكثرُهن فرحاً وغبطةً أختُه الصغيرة .

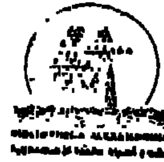
وبعد أن قطعَ معهنّ مدةَ الضيافةِ ذكر أمّه ، فاستأذنَهن أن يرحَل بأسرته إليها ، عسى أنْ يجدَها فيذهبَ عنها الحزن ، ويقر عيْنها برجوعِه ، فأذِنَّ له ، وودّعنَه وأسرته وداعاً كريمًا .

ضربَ حسن الطبْلَ الذى معه ، فحضرت النّجائِبُ ، وحملتْهم إلى

بغداد ، وهُناك وجد أمّه قد أضناها الأسى ، وعبثَتْ بها الوساوِس عبثَ النكباء بالعُود ، فابيضّت عيناها من الحُزن ، وانحلّ فيها كل حَولٍ ومُنة .

وما رأتْهم حتى ارتدَّت بصيرةً ، وأشرقَ جسمُها نوراً ، وتوثبَ حياةً وقوة .

واستقرتْ بهم الحياةُ ، فأقاموا فى ظِلالها الوارفةِ آمنِين .



رقم الإيداع	١٩٩١ / ٣٤٤٢
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3234-3

١ / ٩٠ / ١٧٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبو الحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

